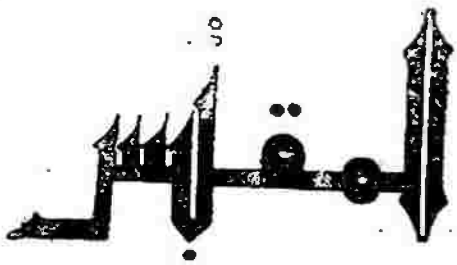

غرة صفر سنة ١٣٢٤

صدور المشارقة والمغاربة

كارلايل

ولد سنة ١٧٩٥ م وتوفي سنة ١٨٨١

هو أحد فلاسفة القرن الماضي في بلاد الانكليز وأوحد رجال القلم وأرباب التاريخ منهم . كان اهله من صغار المزارعين فبعثوا به الى كلية ادمبرغ المشهورة فامتاز فيها بالرياضيات وبذّ فيها أترابه ولما أتم سني الدراسة عين معلماً في احدى المدارس الا ان صناعة التعليم لم ترقه فاقتصد شيئاً من الدراهم يستعين بها على درس الحقوق واللاهوت في الكلية المشار اليها . ثم تخلى عنهما وأخذ باهداب الآداب والانكباب على خدمتها . وكان يقول إن الآداب هي البيعة الوحيدة التي تحشر في حجرها جماعة المؤمنين في القرون الحديثة . ويعني بذلك تشبيه الكاتب بواعظ يبشر بافكاره ويبثها في كل مكان وزمان

أخذ كارلايل يؤازر من أول أمره في انشاء احدى الموسوعات وينشر المباحث النافعة في بعض المجلات ويدرس الالمانية وآدابها وقد نقل عنها شيئاً الى الانكليزية ثم اضطر الى معاودة صناعة التعليم قياماً بأود عياله . وكان في خلال ذلك ترجم شعر شيلر الالماني فلم يحز قبول العلماء واهل الادب .

تزوج كارلايل بفتاة ايكوسية عرفت بعقلها وجمالها بيد انها كانت تشكو كل الشكوى من سكوته وأثرته . ولم يكن زواج العالم سعيداً لضيق ذات اليد وعموم الحاجة وأشياء داخلية هو الاصل فيها . ولقد كتب سنة ١٨٣٠ ان الادب لم يأته بفلس منذ ثلاثة وعشرين شهراً ومع هذا كان من الثبات والانكماش آية الآيات، وغاية الغايات . وفي تلك السنة اتم الجزء الاول من كتابه الثورة الفرنسوية وبعث بمسودته الى ستوارت ميل الكاتب المشهور ينظر فيها فما هو الا ان جاءه كتاب منه يقول فيه: إن خادمة له خرقاء الفت بكتابه الى النار فاصبح رماداً تذروه الرياح . فكاد كارلايل يجن بهذا النبأ حتى انه ظل ثلاثة أيام لم يأكل ولم يشرب وطاش عقله حتى هام على وجهه في الفلاة وبقي ثلاثة أشهر لايعي على شيء الا ما كان من تصفحه بعض الروايات على سبيل التكاهة . ثم عاود كتابة ماسلف له في هذا الموضوع معزياً نفسه بقوله: لعل الاقدار أرادت ان تعاملني في كتابي كما يعامل الاستاذ تلميذه اذا فرض عليه فرضاً ولم يجد فيه فيقول: عد الى كتابته ثانية لانه لايصلح . ولما أتم موضوعه كان الطابعون يخطبون ما كتب من كل صوب واوب يريد كل منهم ان يستأثر بما كانوا لايرتاحون الى النظر فيه منذ سنين لقلة شهرة صاحبه .

وكتب المترجم به مقالات في انتقاد المجتمع الانكليزي تحزب في

يدنها للالمان . وكان بعد عودته الى لندن يخطب في الادب والتاريخ ويقيم الحفلات لذلك . ونقدماحصل من ارتقاء التمدن المزعوم وصنف عدة كتب منها تاريخ فردريك الثاني الالماني وفيه يدرس تلامذة المدارس الجندية الالمانية تاريخ فردريك . ويقول أميرسون الفيلسوف الاميركاني ان كتابه هذا هو أبدع ما كتب من الاسفار التي تشف عن عقل وفضل .

أبدع كارلايل في كتابة التاريخ على طريقة حديثة على عكس سائر الكتاب فهو يضم شتاته على نسق مقدمات العلوم وطريقته ان يعول على من ساعدتهم العناية الربانية فكانوا خيرة قومهم وخاصة بني جلدتهم . ومن رأيه ان لكل عصر مزاياه واهواؤه وحاجاته ومفاسده تتجسد في بطل من الابطال . وان الرجال الحق وحدهم ان يحكموا العالم ويصرفوه تحت أمرهم . فللقائد كرومفل ونابليون ان يكونا وحدهما مثال الرجولية الحقيقية . قال وإن كل مجتمع يرأسه ضعاف العقول ينتهي بالانحلال . وعلى هذا الفكر بنى طريقته في الفلسفة التاريخية — هذه زبدة ماورد في دائرة المعارف الفرنسوية الكبرى وغيرها في ترجمة هذا الرجل العظيم .

الصحافة العربية

مضت نحو ثمانية عقود من السنين منذ انشئت أول صحيفة عربية انشأها محمد علي الكبير في هذه العاصمة وسماها الوقائع المصرية وانشأ رفاعة الطهطاوي أول مجلة علمية سماها روضة المدارس . دامت الوقائع الى اليوم وانقطع نشر الثانية بعد ان صدرت أربع عشرة سنة . وما لبثت الصحافة ان ولدت ونمت في أرض سورية ثم انتقلت الى مصر في أواخر القرن الماضي

وأوائل هذا القرن ودبت فيها ودرجت . فكأن الله خص مصر بان تزكو تحت تنمائها الاعمال العلمية كما تزكو تربتها بالاعمال الزراعية

وما برحت الآمال معقودة بان تبلغ الصحافة عما قليل أشدها ورشدها لتضاهي صحافة الامم الراقية في موضوعاتها وتأثيراتها اذ أن العقلاء يذهبون الى ان صحافتنا مازالت حالها على ما انتهت اليه غير متناسبة مع عمرها الطويل . والمعمر في الاعم من حالاته يشتد ساعده وزنده وتقوى ملكة عقله وعلمه بكثرة تجاربه وأسباب رويته . ولا خير في أمة لايقوم بشؤونها شيوخ تفاخر باعمالهم مفاخرتها بعقولهم وطول أعمارهم .

لاجرم ان تخلف الصحافة عن بلوغ مراقي الفلاح الحقيقي لاول أمرها ناجم عن كونها نشأت وسط أمة لاتعترف بالعلم الا لرؤساء الاديان وهؤلاء لايعدون من العلم في شيء إلا ما بحث في الأخرويات أو الزهديات أو الجدليات . وبين ظهراني أدباء يزعمون ان الادب عبارة عما الفوه من مدح اطناب الاطناب في اطراء الكبراء والاسخياء وأرباب المظاهر والاغتراف من بحر المديح بالطويل العريض . وبين كتاب لايعتقدون الكتابة الا فيما اصطلحوا عليه من كتابة الصكوك والعقود والمواثيق . وبين عظماء موقنين بان رؤساء الدين والعلم والادب اتباع لهم . هكذا كان العلم والادب في دور الصحافة الاول . ولا يفوتك العلم بان من تنبهوا لها كانوا يشاكلون قومهم بعض المشاكلة في أدبهم وأخلاقهم لانهم أبناء ذاك الوسط الذي هم بعض أفراده وسلالة تلك الطينة الشرقية التي جبلت بيد الضعة وصهرت بقطران المسكنة . ويعلم الباحثون في عقول الفصائل البشرية ان الشرقي ذكي مفطور على حب التقليد خصوصاً اذا تهيأت له الاسباب فقد نجد المصري أو السوري يتعلم شيئاً من لغات

الغربيين فلا يعتم ان يقدم في مناحيهم وأطوارهم أما من ذهب الى بلادهم ودخل مدارسهم فانه يكون مثلهم الا القليل . غير ان تقليدنا الغربيين في صحافتهم قد ابطأ وكان من حقه ان يتقدم كل تقليد . ذلك ان المجلات الدورية على مافي اكثرها من المحاسن والفوائد لا يزال بعضها يعرف بالتقليد ويكتب بلسان التقية على ان العلم لادين له ولا نزعة . أما الجرائد السياسية فتكاد تكون نمطاً واحداً في انشائها واخبارها . ناهيك بما في بعضها من التضارب في الآراء والمذاهب . ولو خلت من هذه الشائبة وكان لها مواد وافرة تستعيض بها عن تجسيم الاخبار وبناء قبة من حبة لكان فيها خير ذخر ينفع العقول ويقودها الى مهيع السداد وجواد الاسعاد . وليس العلم كالسياسة في مسائل المغالطة والسفسطة فان جوزهما فريق في السياسة حباً بالمصلحة فانهما لا يسوغان في العلم بحال من الاحوال

يعيب المغاربة على المشارقة تقلبهم في مآربهم وحركاتهم . وهذا التقلب محسوس في بعض جرائدنا فانها كدوارة الهواء في الافكار تنتسب اليوم الى حزب وتستميت في الدفاع عنه حتى اذا لم تصادف من ورآئه مغنماً أو تؤنس من أهله فتوراً تنقلب عليه وتنسى اليوم ما ذكرته أمس . وليس معنى هذا اني لا أقول بالاحزاب فان الاختلاف بين الناس ضروري على شريطة ان يخلص صاحب المبدإ في أقواله وأفعاله ويعتقد صحته ويتفانى في نصرته دون ان يغمط حق خصمه وينقض منه . وحبذا لو طرحت مسائل التشيع للاحزاب جانباً واشتغل أرباب الجرائد السياسية في بث أدب وفضيلة وتأييد كلمة حق نافعة . وما التحزب للاحزاب لو أنصفنا الا ضرب من ضروب الخراب وكل بيت ينشق على نفسه يخرب . وما أشبه بأهل البصيرة

ان يختفوا من هذه النغمة نقد ضربوا على وترها أعواماً وأعوام بالمستحالت ، والاقوال مانجحت ، بل ازدادت النفوس اشمئزازاً والصدور إيغاراً . ومن سوء طالع هذه البلاد ان معظم بنيها لا يرون الامور بل لا يريدون ان يرونها الا من جهة واحدة .

ومن الغريب دعوى بعضهم في أن غير هذه البضاعة في العلم والسياسة لا تنفق في سوق الأمة لانها ما فتئت في الجهالة غارقة والصحيح ان التاجر الماهر يصرف ضروب السلع في معرض بضاعته اذا أجاد مصنوعاته وأحسن بياعاته . الا ترى الى رواج انواع من الصحف ما كان يحلم برواجها . تهيأ لها الرواج عند ما صحت عزائم القائمين بها وأخلصوا القصد في نشرها ولا يضر العمل الصالح اذا تصدى بعض ضعاف العقول الى التزهيد في خطته فما قط اجتمعت كلمة العامة والخاصة على استحسان شيء وكذلك لا يضر الصحف ويحول دون انتشارها ما يوعز به بعض انصار التقليد في العلم الى اليوم من الرغبة عن مطالعتها لانها مفسدة منقصة فان امثال هؤلاء المثبطين عن كل جديد نافع هم الحلمة الطفيلية في العمران ، وكل من حال دون أسباب العلم والعرفان ، هو العضو المؤوف في جسم الانسان

زار صديق لي من كتاب الصحف منذ سنين رجلاً ذا شهرة طائلة موسوماً بشعار العلم في احدى المدن الكبرى وله من التلامذة والمريدين صنوف فعرفه اليه بعضهم وقال له : هذا فلان من شيء الجريدة الفلانية . فقال وما هي الجريدة . فانشأوا يشرحونها له حتى فهمها ولكن بعد ان بح صوت الشارح في شرحه لمحدثه عن معنى الجريدة وهو يستغرب وجود شيء في العالم يعرف بهذا الاسم . فانقلب صاحبنا من لدن ذاك الرجل مغرباً في الضحك متعجباً

من أناس في مثل هذا العصر جاهلين بأحوال العالم الى هذا الحد بعيدين عن حوادث الايام . وعندي ان أمثال هذا الرجل لا يفيد الصحف تنشيطه وتثبيطه . والمعارف اليوم كسيل جارف تودي بمن لا يجاري الدهر ويمشي مع الأيام والجامدون كثار في كل جيل وقبيل وليسواهم المطالين برواج بضاعة القلم أو المقصودين بالنفع من المكتوب . ولئن يهدي الله بهذا صعلوكاً صغيراً خير من إضاعة الوقت في ممارسة شيوخ الجمود وكهوله وشبانه .

وكلما تأملت الصحف وآراء طبقات الناس فيها استنتج ان من توفروا على نشرها أول النهضة كان معظمهم من العامة الذين لا يجنون من الجرائد غير ما تأتي به من الربح المادي وبعبارة أخرى كانوا تجاراً لا اصحاب دعوة الى اصلاح أو ارادة في بث علم وفضيلة ، وسماسرة أقوال ، لا صيارفة عقول ، وجهابذة جربذة لا جهابذة افعال . دع عنك سيد الصحفيين في الدور الاول احمد فارس الشدياق صاحب الجوائب في الاستانة فانه أحسن الاضطلاع بوظيفة الصحافي وتمت على يده حسنات كثيرة من خدمة اللغة والادب والعلم والسياسة لان غرضه لم يكن مادياً محضاً . وان ما نراه اليوم من ارتقاء بعض الصحف السياسية فالفضل له فيه لانه واضع أساسها الحقيقي وما نراه من انحطاط بعضها فنشأوه أولئك العامة الذين انشأوا الجرائد في الدور الاول وغرضهم الدنيا من أي الطرق أتت وما نشهده من ارتقاء بعض المجلات فمصدره رفاعة الطهطاوي في مجلته روضة المدارس وما منزلة رفاعة في العلم بخافية على دارس تاريخ النهضة العلمية في هذه الديار .

ولقد قامت بعد ذلك العهد مئات من الصحف الاخبارية والعلمية ثم سقطت وانتشرت ثم انتثرت شأن كل نهضة في أولها خصوصاً في بلاد

يغلب على اهلها القول حتى اذا حقت كلمة الفعل تضاءلت نفوسها ابناؤها وأعوزهم الثبات والصبر . وما عهد في تاريخ الحياة الاجتماعية ان عملا نجح فيه صاحبه دون التشبث باهداب عامة أسباب النجح وتهيئة المعدات الضرورية من علم وعمل ومال ورجال اللهم الا في الشرق فان معظم من ينجحون فبالاتفاق هذا وقد نفعت الصحف على قلة نصرائها في تنوير العقول وتحسين ملكة المنثور والمنظوم فانتقل زمرة من العامة بادمان مطالعتها من طور العامية الى طور العالمية . ولكم كانت الجرائد والمجلات باعثة على تعلق بعضهم بالمطالعة حتى صارت لهم عادة وجبلة وفتحت لهم طريق البحث والدرس . وسقياً ليوم تتأصل فيه الحرية الحقيقية في أخلاق الامة فتذكر المحسن باحسانه والمسيء باساءته . ورعياً لعهد نرى فيه لقادة الافكار من تعليمهم الحر ما يلتزمون به القصد فلا الى تفريط ينهجون ولا في الافراط يسترسلون . وقد خطب حاكم الهند منذ مدة متخرجي المدرسة الجامعة بكلكتا فقال ان المبالغة من شأن جرائد تلك البلاد فهلا خطب فينا من يحسن وصف جرائدنا هذه . وبعد فهذا رأي مولع بالصحف على اختلاف ضروبها منذ صغره بل خاطر صحافي خدم الصحافة سنين كثيرة صرح به على جليته غير مداس ولا مؤالس والله يعلم وانتم لا تعلمون

تأثير الآداب

للآداب معان كثيرة فمعناها اللغوي حسن الاخلاق وفعل المكارم وأطلقه المولدون في الاسلام على علوم العربية وأعني به هنا المنظوم والمنثور من الكلام ومنزلته من الفصاحة والبلاغة ليفعل في الارواح فعل الراح. ولكل أمة أدب بحسب اصطلاحها ورسوم لغتها يطرب به عامتها فضلا عن خاصتها وتثار به الاحقاد وتحرك الحفائظ وتدعى به الى سبل السلام والوئام ويدلها على مواقع السداد والسؤدد ويذكرها بأيامها وأيام النازلين بقربها والقاصين عنها وهو على الجملة مسبر للوقوف على الحاضر والغابر ومهماز يدفع الى العمل بعد القول ومثار كل فضيلة رافعة ومثار كل نجح عاجل أو آجل.

لابد في كل نهضة دينية كانت أو مدنية ان تتقدمها الآداب ويتفانى ابناؤها في حبها شهد بذلك تاريخ الامم جمعاء. ألا ترى ان أديب القبيلة في الجاهلية كان يتدفق من لسانه معين البلاغة فتفعل كلماته في قبيلته يعقد بها سلمها ويشهر حربها ويعدد مفاخرها ومآثرها ويدون تاريخها وايامها وان سوق الادب عند العرب لما نفقت وكثر تغاليهم في نقلها وانشادها وأصبحت بينهم للبلاغة دولة، ولجوامع الكلم تأثير وصولة، نزل القرآن فادهش باعجازه البلغاء، وأسكت ببيانه مصاقع الخطباء، وتأدب رجال الخطابة والكتابة بآدابه وتبيانه فزاد تأثير الشعراء والخطباء أكثر من ذي قبل حتى كان أهل الحكم يحاذرون فلتات ألسنهم فيوسعون لهم من برهم مايقطعونها به.

ولما أخذت الآداب موقعها من النفوس ونالت حظها من العناية ونضجت ثمرتها حتى كادت تذبل عرف العرب ان كيانهم لايقوم بالآداب

وحدها وسلطتهم لا تأمن البوائق بنات الافكار وان دور الاقوال انقضى حكمه وجاءت النوبة للافعال ونضبت مادة البيان ومست الحاجة الى البرهان فانشأوا اذذاك يتوفرون على الاخذ من كل علم يزيد في سعادتهم ويضمن لهم الراحه الدنيوية كما ضمن لهم الدين الراحة الاخروية وكان من أمر علوم الامم وتناقلها بين ظهرانيهم ما كان من حسن الاثر وخدمة الحضارة والفضارة .

وهكذا لو بحثت في تاريخ كل أمة لالفيت الآداب روادها ، الى مسالك إسعادها وقوادها ، الى ذرى رقيها وإصعادها ، كان هذا شأن الفرس واليونان والرومان في القرون الماضية بل وشأن الترك والعرب في القرون الحديثة فانهم لم ينبغ لهم في التاريخ والسياسة وفنون الحرب والطبيعة والرياضة والفلسفة رجال أحرياء بالاعتبار بالنسبة لمحيطهم وأسبابهم حتى نبغ بينهم أهل آداب أمثال كمال وضياو ناجي والابياري والفاروقي والاسير والاحدب واليازجي وكرامة والجندي والهلالي ومراش والشدياق والبربير وأمثالهم ممن بيضوا الصحف بما سودوه في القرطاس من رائع آدابهم وفيض قرائحهم وخفة أرواحهم .

وقر زعماء الأدب في الصدور بما نفثوه من صدرهم اكثر من العلماء والمفتنين بما خدموا به العلم والمدنية من نتاج عقولهم المستنيرة وما ذاك والله أعلم الا لان الادباء يكتبون للعامة والخاصة معاً أما العلماء فيكتبون للخاصة فقط . وشأنهم في هذا شأن أهل العلم والاختراع مع أرباب الاموال في الغرب لعهدنا فان الأول يتعبون في الابداع فلا يتمتعون بثمرة جزء طفيف من أعمالهم الشاقة الطويلة ويجيء أرباب المال فيجنون الثمرة غضة يانعة

قال بلونشلي الالماني في كتابه السياسة ما تعريبه : للآداب في أفكار الطبقة المنورة تأثير أعظم من تأثير العلم اذ ان بجمال الشكل والصورة وقعاً كبيراً في النفس اكثر من العلوم التي هي في الغالب قضايا غثة باردة وان كتب شكسبير (١) وولتير سكوت معروفة اكثر من كتب باكون ونيوتن وان التمدن الافرنسي ينسب الى راسين وموليير أو فولتير أكثر منه الى بوفون ولابلاس ودوبين . وان كيتي وشيلر قد نوّرا وحساطبقات اكبر من التي نورها كانت . والاخوان هومبولد وليسنغ قد أثرا بروايتهما في نانان اكثر من روايات لاوكون اه

---

(١) شكسبير أعظم شعراء الانكليز ولد سنة ١٥٦٤ وتوفي سنة ١٦١٦ . وولتير سكوت روائي انكليزي مشهور ١٧٧١ ــ ١٨٣٢ . وباكون ساحب الخاتم في انكلترا على عهد يعقوب الأول ومؤسس المذهب الاختباري في درس العلوم . ونيوتن رياضي وطبيعي وفلكي انكليزي ١٦٤٢ ــ ١٧٢٧ . وراسين أعظم شعراء الفاجعات من الروايات عند الفرنسيس ١٦٣٩ ــ ١٦٩٩ . وموليير أشهر شعراء الفرنسيس صاحب الهزل والتكيت ١٦٢٢ــ١٦٧٣ . وفولتير فيلسوف شاعر مؤرخ افرنسي صاحب الحزب الفلسفي في القرن الثامن عشر ١٦٩٤ ــ ١٧٧٨ . وبوفون طبيعي وكاتب فرنسوي مشهور ١٧٠٧ ــ ١٧٨٨ ولابلاس مهندس وفلكي فرنسوي ١٧٤٩ ــ ١٨٢٧ ودوبين مشترع وسياسي افرنسي ١٧٨٣ ــ ١٨٦٥ . وكيتي أعظم كتاب المانيا ١٧٤٩ ــ ١٨٣٢ . وشيلر أعظم شعراء المانيا ١٧٥٩ ــ ١٨٠٥ . وكانت فيلسوف المماني ١٧٢٤ ــ ١٨٠٤ . والاخوان هومبولد أحدهما اسكندر كان سائحاً ومن رجال العلم والسياسة في بروسيا ١٧٦٩ــ١٨٥٩ . والثاني غليوم اشتهر بالسياسة وعلم اللغة ١٧٦٧ــ ١٨٣٥ وليسنغ شاعر ومنتقد المماني ١٧٢٩ ــ ١٧٨١

قال لي أحد ساسة الالمان يوم زار الامبراطور غليوم الثاني بلاد الشام أتدري لِمَ أحب مليكنا السلطان صلاح الدين يوسف حتى قصد دمشق لزيارة ضريحه وفاخر بأنه بات في مدينة عاش فيها من كان أعظم ابطال العصور السالفة قلت لاعلم لي بذلك قال لانه قرأ في صباه رواية وأظنه قال لشاعرنا شيلر تضمنت سيرة صلاح الدين ووقائعه فأشرب قلبه حبه وراح مالقيه في العاشرة يبرز أثراً من آثاره وهو في الاربعين .

قلت وهذا ملك عظيم في الحديث أثر فيه شاعر أمته أحسن تأثير على انه الأدب يلطف الشعور ويحسن العواطف ولقد كان جد هذا الامبراطور فريدريك الكبير لما عزم على إنهاض أمته من كبوتها يوعز الى الشعراء بواسطة بعض وزرائه ان ينظموا قصائد حماسية ترقق الاحساس وتكبر النفوس وتدعوها الى المعالي فكانت هذه القصائد سبباً في إنهاض المانيا ووحدتها على ماقيل

واليك مثالاً من تأثير الآداب في القديم قال معاوية بن أبي سفيان اجعلوا الشعر اكبر همكم واكثر آدابكم فان فيه مآثر اسلافكم ومواضع إرشادكم فلقد رأيتني يوم الهزيمة وقد عزمت على الفرار فما ردني الا قول ابن الاطنابة الانصاري .

أبت لي عفتي وأبى بلائي ... وأخذي الحمد بالثمن الربيح
وإجشامي على المكروه نفسي ... وضربي هامة البطل المشيح
وقولي كلما جشأت وجاشت ... مكانك تحمدي أو تستريحي
لادفع عن مآثر صالحات ... واحمي بعد عن عرض صحيح

البشر والشعوب

معرب عن الافرنسية

علم خصوصيات الشعوب — يعمر الارض ناس قلما يتشابهون ، يختلفون بالطول وهيئة الاعضاء والرأس وسيماء الوجه ولون العيون والشعور ويتباينون باللغات والذكاء والاحساس . وبهذا التمايز ينقسم سكان المعمور الى عدة أقوام تدعى أجناساً . فالجنس مجموع ناس يتماثلون ويباينون جنساً آخر وما يمتاز به جنس عن غيره من العلامات العامة ويسمى طبائع وأخلاقاً هو الذي يتألف منه مجموع خواصه . فيعرف الجنس الزنجي مثلا بجلد أسود، وشعور مجعدة، واسنان بيضاء، وأنف أفطس، وشفاه خنس، وفك ضخم . ويدعى درس احوال الاجناس وما يتشعب عنها « ايتنوغرافيا » أي علم خصوصيات الشعوب . وهو علم لم يرتق بعد لحداثة وضعه ومابرح مشوشاً منتشراً لكثرة مجموع خواص البشر وصعوبة التميز بينها احياناً .

الاجناس — أخص الاجناس الجنس الابيض وهو يسكن أوربا وشمالي إفريقية وغربي آسيا . والجنس الاصفر ينزل في آسيا الشرقية ومنه الصينيون والمغول والترك والمجر . ومن دخل اوربا منهم من الفاتحين فبشرته صفراء وعيونه خُرز مقطبة ووجناته ناتئة ولحيته خفيفة . والجنس الاسود يقطن أواسط إفريقية وهم الممتازون باديم اسود وأنف أفطس ووفرة كالصوف . والجنس الاحمر يستوطن أميركا ومنهم هنود تلك القارة حمر الاديم سبط الشعور

الشعوب المتحضرة — يُعدُّ أهل الجنس الابيض من المتحضرين الا قليلا أما سائر الاجناس فقد ظلوا على حالة الهمجية والبربرية كما كان الناس قبل زمن التاريخ . قامت الشعوب المتمدنة على تخوم قارتي آسيا وإفريقية فقام

المصريون في وادي النيل والكلدان في سهل الفرات . وكلهم أهل فلح وحرث ألفوا الاقامة وجنحوا للسلم . أديمهم مشبع، وشعرهم قصير أثيث، وشفاههم مبرطمة، ولا يسلم على التحقيق من أين منبعثهم . ولم تتفق آراء العلماء على تسميتهم فيدعونهم تارة كوشيين وأخرى شاميين . وقد انسالت من جبال آسيا بين القرن العشرين والخامس والعشرين ق . م عصابات من الرعاة أهل غارة وزعماء فتنة فانتشروا في أطراف أوربا كافة وفي غرب آسيا . وتقسمهم العلماءُ الى قسمين آريين وساميين .

الآريون والساميون — ليس بين هذين الجنسين من علامة خارجية جلية فكلاهما من الجنس الابيض : اهليلجية سحناتهم ، متناسبة أعضاؤهم، صافية بلودهم ، أثيثة شعورهم ، نُجل عيونهم ، رقيقة شفاههم ، منتصبة أرنبتهم ، وهم في الاصل رعاة من سكان الجبال يألفون الارتحال والقتال . ساميهم من أرمينية ، وآريهم من وراء جبال حملايا وهم يمتازون بالعقل واللسان خاصة امتيازهم بالديانة قديماً . وقد وقع الاتفاق على تسمية الشعوب التي تتكلم لغة آرية بالآريين وهم الهنود والفرس في آسيا . والروم والطليان والاسبان والجرمان والسكنداويون والسلافيون (الروس والبولونيون والصرب) والسلت (١) في أوربا . والساميون هم الشعوب التي تتكلم لغة سامية وهم العرب واليهود والسوريون ومما ينبغي ان يعلم ان بعض الشعوب تتكلم لغة آرية او سامية وليست من الآريين والساميين في شيء كما ان الزنجي قد يتكلم الانكليزية وليس فيه عرق من الانكليز . وربما عددنا كثيراً من الاوربيين في مصاف الآريين وليست اصولهم في الواقع الا من

---

(١) الانكليز والفرنسيس من السلتيين والجرمانيين

جنس غلب عليه الآريون فاقتبس لغاتهم على نحو ما اقتبس الفرس لغة العرب ايام غلبوهم على امرهم. فهذان الاسمان الآري والسامي يطلقان اليوم على فريقين من الشعوب وليسا جنسين حقيقيين . ولا بأس ان يقال بناء على هذا المعنى ان الشعوب المرتقية كانت كلها سامية وآرية فنشأ من الساميين الفينيقيون رجال البحار واليهود رجال الدين والعرب رجال الحرب فسار فريق من الآريين الى الهند وانصرف آخر الى اوربا فنشأت منهم تلك الامم التي كانت ولا تزال في مقدمة العالم . ولقد امتاز الهنود في القديم بآرائهم العالية الفلسفية او الدينية واليونان بايجاد الصنائع والعلم والفرس والرومان بتأسيسهم في الشرق والغرب مملكتين عظيمتين من اضخم الممالك التي نشأت في الايام الخالية

ويبدأ تاريخ الحضارة بالمصريين والكلدانيين حتى اذا كان القرن الخامس والعشرون للميلاد يصير عبارة عن تاريخ الشعوب الآرية والسامية

التاريخ

الاساطير — نقلت أساطير الاولين عن روايات متسلسلة طالما تحدث الناس بها قبل ان يدونوها لذلك تراها مشوبة بحكايات وخرافات . فتحدث اليونان ان أقدم أبطالهم أبادوا الغيلان وقاتلوا الجبابرة وكافحوا الآلهة وزعم الرومان ان روملس ربته ذئبة ورفع الى السماء وقص جماع الشعوب عن طفوليتهم اساطير من هذا القبيل لا ثقة بها عند التمحيص مهما قدم عهدها

التاريخ — يبدأ التاريخ حقيقة لدن وجود اخبار صحيحة دونها اهل ثقة وعلو سماع . وليس هذا الدور واحداً في الكلام على الامم كلها فتاريخ مصر يبدأ قبل ثلاثة آلاف سنة ق . م وتاريخ اليونان يكاد لا يتعدى

الثامنة سنة ق . م وليس لالمانيا تاريخ يعرف الا في القرن الاول للميلاد ويعرف تاريخ روسيا منذ القرن العاشر وليس لبعض القبائل المتوحشة الى اليوم تاريخ في نشأتها

تقاسيم التاريخ الكبيرة — يبدأ تاريخ الحضارة باقدم شعب متمدن وينتهي بايامنا فمعنى القرون الماضية الدور العريق في القدم جداً ومعنى القرون الحديثة الدور الذي نحن فيه

التاريخ القديم — يبدأ التاريخ القديم بالامم القديمة المعروفة من المصريين والكلدانيين أي من نحو ثلاثة آلاف سنة ق . م ويعم شعوب الشرق من هنود وفرس وفينيقيين ويهود ويونان ورومان وينتهي حوالى القرن الخامس ب . م بسقوط المملكة الرومانية

التاريخ الحديث — يبدأ التاريخ الحديث باواخر القرن الخامس عشر زمان اختراع الطباعة واكتشاف اميركا وبلاد الهند ونهضة العلوم والصنائع ويلم بذكر شعوب الغرب خاصة من اسبان وطليان وفرنسيس والمان وروس وأميركان .

القرون الوسطى — هي عبارة عن عشرة قرون مضت بين القرون القديمة والحديثة فلا هي قديمة لما اعتور الحضارة القديمة من الاضمحلال ولا هي حديثة لان التمدن الحديث لم يتكون بعد . وهذا مايدعى بالجيل المتوسط .

مصادر تاريخ الحضارة القديمة — ليس في الوجود اليوم اشوريون ولا يونان ولا رومان فقد بادت الشعوب القديمة كافة وما خلفوه من العاديات هي فهرست نستفتيه للبحث عن اديانهم وأخلاقهم وصنائعهم . والعاديات هي الكتب والرسوم والآثار واللغات . هذه عدتنا في دراسة الحضارة

القديمة وهي تدعى مصادر لانا نستقي منها معلوماتنا . والتاريخ القديم يتفرع من هذه الاصول .

الكتب — وضع القدماء الكتب أيام عرفوا الكتابة فكان لبعضهم مثل الفرس واليهود والهنود كتب مقدسة وخلف الرومان واليونان تواريخ وقصائد وخطباً ومقالات فلسفية . وقلما نجد في الكتب المواد اللازمة لمباحثنا اذ ليس لدينا كتاب اشوري ولا فينيقي أما مابقي من أسفار الشعوب الأخرى فتافه جداً . ولقد كان القدماء يكتبون ولكن أقل منا ولذلك كانت تآليفهم اندر ولم يكن لهم من كل مصنف إلا نسخ قليلة لما ان الحال كانت تقضي باستنساخها كلها باليد وقد دثر غالب هذه النسخ أوضاع أو تعذرت قراءة مابقي منه ويسمى علم حلها «باليوغرافيا» أي علم الخطوط والكتابات القديمة .

المعاهد — أقامت الشعوب القديمة لانفسها معاهد مثلنا من مثل معابد لاربابها وقصور لملوكها وقبور لموتاها وقلاع وجسور وقنوات وأقواس نصر . ولقد تهدم كثير من هذه المعاهد واستؤصل وتجزأ بيد العدو أو بيد سكان البلاد ومنها مالم تقو الغير على تقويض دعائمه وما فتئت ماثلة للعيان متداعية مثل القصور العتيقة لانقطاع الايدي عن تعهدها . وقد بقيت بقية يعلم منها ما كانت عليه سالفاً . وما زال بعض هذه المعاهد فوق التراب كالاهرام في مصر ومعابد ثيبة وجزيرة فيلا وقصور البرسبوليس في فارس والبارثينون في اليونان والكوليزة في رومية والبيت المربع وجسر الحرس في فرنسا . وان السائح لعهدنا لينظر الى هذه الآثار نظر دلائر حديث . وقد ردم أغلب هذه المعاهد على التدريج بتراب أو رمل أو فتات أرضية وانقاض فينبغي

تخليصها من هذا الساف الكثيف أو حفر أرضها وكثيراً ماتكون عمقة للغاية. ولم يعثر على القصور الاشورية الا بخرق آكام وتلال . وقد حفرت حضرة عمقها اثنا عشر متراً للوصول الى قبور ملوك ميسينا

وبعد فان عفاء هذه الخرائب لم يكن بصنع الدهر وحده فللبشر اليد الطولى في ذلك . ولم يكن القدماء ليتعبون مثلنا في التقدير والقياس لاقامة البناء . وما عنوا بنزع الردم من أماكنه بل كانوا يركمون الانقاض ويبنون عليها ولا ينزعونها حتى اذا أشرف البناء الجديد على السقوط تضم انقاضه الى اطلال اخواتها القديمة وهكذا تتألف طبقات عديدة من الانقاض . وقد جاز أحد السياح المدعو شيلمان بحفرة في مكان مدينة تروادة خمس طبقات من الاطلال اذ كان ثمت خمس مدن خربة كلها واعتقها على عمق خمسة عشر متراً . وما برحوا يعثرون في رومية في الاحايين على ثلاث بنايات منضدة بعضها فوق بعض وقد تراكمت عليها الاطلال فعلا التراب في سفح التلال بضعة أمتار

بقيت مدينة برمتها لم تمسسها طوارق الحدثان وذلك بحادث طبيعي جرى عام ٧٩ للمسيح وهو ان بركان فزوف في ايطاليا قذف سيلاً من الحمم مائعة أمطرت رماداً فانكشفت للحال مدينتان رومانيتان كانتا مدفونتين وهما هيركولانوم وبومبيه . كانت الاولى تحت الحمم السائلة والثانية تحت الرماد . وقد أحرقت الحمم المتاع وغشاها الرماد وحفظها من الهواء فبقيت سالمة . وكلما أزيح الرماد تظهر مدينة بومبيه للاعين على نحو ما كانت عليه منذ ثمانية عشر قرناً . وانك لترى في بلاطها بعد مجرات العجلات وآثار سير المركبات وصوراً خطت بالفحم في الحيطان ونقشاً وأثاثاً وماعوناً

وخبزاً وجوزاً وزيتوناً في الدور والمساكن وهيا كل عظام من دهمتهم الكارثة مبعثرة مبددة. وبهذا عرف القارئ ان الآثار والمعاهد تفيدنا كثيراً في الوقوف على حالة الشعوب القديمة. ويدعى علم الازمنة القديمة «أركيولوجيا»

الرسوم — نعني بالرسوم كل مايشمل الخطوط عدا الكتب فمعظم الرسوم زبرت على الحجر وحفر بعضها في صفائح من القلز ووجد منها في مدينة بومبيه مازبر على الجدران بالاصباغ أو بالفحم. وان بعض هذه الرسوم لتمثل تذكارات وقائع أو رجال كما هو جار الآن عند الافرنج فيما يقيمونه من تماثيلهم وبناياتهم. هكذا نرى الامبراطور اغسطس دون حياته على معهد انسير ومعظم هذه الرسوم عبارة عن كتابات زبرت على القبور ويماثل بعضها الاعلانات لعهدنا فتحتوي على قانون أو نظام تراد إذاعته بين القوم. ويدعى علم الرسوم «ابيكرافيا»

اللغات — تفيد اللغات التي نطقت بها الشعوب القديمة في بيان تاريخهم فاذا فهم الباحث كلمات من لغتين مختلفتين ينجلي له أحياناً أن أصل هذين اللسانين واحد ويسجل بان الشعوب التي تكلم بها خرجت من نبعة واحدة. ويدعى علم اللغات « لينكستيك »

النواقص — لايذهبن ذاهب الى ان الكتب والمعاهد والاطلال واللغات تكفي للاحاطة بتاريخ القرون السالفة فان فيها تفاصيل جمة يمكن الاستغناء عنها وما ترغب نفوس الباحثين في استبطان حقيقته قد يعز عليها ويفر منها. وما برح العلماء يحفرون ويحلون ويظفرون كل يوم باطلال ومعاهد لم تعرف من قبل وقد بقيت مع هذا نواقص وسيبقى كذلك أبد الدهر

الامية في الغرب

ليس لدينا ما يركن اليه من الاحصاءآت في نسبة عدد الأميين في بلاد الغرب الى المتعلمين من أبنائهم اذ أن احصاءَ اليوم قد لا ينطبق عليه احصاء غدٍ . والذي علم بالتحقيق ان الممالك الاوربية الصغرى كالدانيمرك والبلجيك وهولاندا واسوج ونروج وسويسرا هي أكثر اهل أوربا انغماساً في التعليم وأقل أهلها اميين حتى ان عدد هؤلاء بالنسبة الى المتعلمين يكاد لا يذكر ويكفي أنه لا يوجد في سويسرا غير شخص واحد أمي في كل الفين من السكان ذكورهم وأناثهم

ولئن كان التعليم اجبارياً في بعض الممالك الكبرى باوربا واميركا فلا يزال عدد الأميين يذكر فيها وفرنسا هي في مقدمة الدول العظمى بقلة أميها وكثرة متعلميها ومنوريها . وجميع الدول شاعرة بوجوب التعليم تتفنن كل يوم في بثه على أساليب لم يكن يحلم بها اليونان والرومان ولا العرب ولا غيرهم من الامم العظيمة التي كان لها شأن في بعض أزمان التاريخ . وقد ارتقت المدارك في الغرب حتى أصبح ما كان يدعو اليه خاصته في أوائل القرن الماضي قضية مسلمة عند الخاصة والعامة في أوائل هذا القرن وصار عليه الفتوى والعمل . كل ذلك بفضل اهل العلم منهم وعلى حسب سنة الترقي قال (١) : بنتام ذهب بعض قادة الامم الى ان انتشار المعارف مضر وظنوا بأن قيمة الناس تعلو بمقدار نقصهم في المعارف وانه كلما نقصت معارفهم

---

(١) هذه الصحيفة ملخصة من كلام لبنتام المشرع الانكليزي المتوفى سنة ١٨٣٢ في كتابه أصول التشريع الذي عربه حضرة العالم الفاضل أحمد فتحي بك زغلول من قضاة مصر

غابت عنهم معرفة الاشياء التي تبعثهم على الضرر أو علمهم بوسائل فعله. وهو غلط فان انتشار المعارف ما كان ولن يكون سبباً في ازدياد الجرائم ولا مسهلا لارتكابها ولكنه نوّع الطرق في اقترافها فاستعملت وسائل أقل ضرراً من التي كانت قبلها . لنفرض ان الاشرار يستفيدون من كل أمر وانه بقدر معارفهم يسهل عليهم الضرر فهل نتيجة ذلك بقاء الناس جميعاً في ظلمات الجهل ولو كان خيار الناس وشرارهم منقسمين الى نوعين ممتازين كالأمة البيضاء والأمة السوداء لقصرنا المعارف على الأولى وأبقينا الثانية في الجهل لكن تعذر ذلك وملازمة الخير للشر في الشخص الواحد تدعونا الى القول بجعل الكل تحت نظام واحد فاما جهل مطبق للجميع وإما علم للجميع ولا وسط بينهما

على ان الدواء في الضرر نفسه لان المعارف لاتساعد الاشرار على شرورهم الا اذا اختصوا بها لكن اذا عمت سهل على غيرهم ان يعرفوا حبائلهم فيسقط تأثيرها. ألا ترى ان الامم في ازمان الجهل ما كانت تعرف من السميات الا ماتسقي به أسنة رماحها ولكن الامم المتمدنة عرفت جميع انواع السميات وعرفت أيضاً كيف تقابلها بما يدفع ضررها . كل انسان يمكنه ان يفعل جريمة ما وذو المعارف وحده هو الذي يتمكن من وضع قانون لمنعها وكلما قصرت معارف المرء صار ميلا الى فصل منفعته عن منافع الغير وكلما ارتفعت مداركه وسمت معارفه علم الجامعة بين المنفعتين .

وبعد فان من نالوا غايتهم حقيقة بجعل أممهم في حضيض الجهل انما نالوها بنشر الاوهام واذاعة الاغلاط فيهم ولقد كان أولئك الرؤساء أنفسهم طعمة في هذه السياسة الحرجة اذ صارت الامم التي استمرت في السقوط تحظر قوانينها عليها ان تصعد في مراقي التقدم فريسة الامم التي

ارتقت معارفها فارتفعت قيمتها عليها . لان الاولى شبت في الجهل وشابت في الطفولية تحت قيادة قوم أطالوا زمان خمولها ظناً بأنه يسهل عليهم تملكها لذلك سهلت تلك الامم فتح أبوابها للطالبين اذ لا فرق عندها بين حاكمها والجديد فهي خاضعة وأولئك يحكمون

هذا ماقاله المتشرع الانكليزي وقال روبرتسون: كان الافرنج في القرون الوسطى أميين لايقرأون ولا يكتبون فكان الاعيان لايحسنون توقيع الكتب الصادرة عنهم فيكتفون برسم الصليب عليها بدلاً من التوقيع وقد شوهد كثير منها في الازمنة الاخيرة بعضها صادر عن الملوك وبعضها عن الاعيان كما ذكر دوكنج بل وجد في القرن الرابع عشر ان أعظم أكابر عصرهم وقوادهم مثل دوغسقلين رئيس الجيوش الفرنسوية أمياً . وكان معظم القديسين أرباب المناصب الدينية والدنيوية لا يحسنون كتابة اسمائهم على المقررات في المجالس وكان أعظم امتحان يجري على من يروم ان يتقلد وظيفة سؤاله عما اذا كان يحسن قراءة الانجيل والمكاتبات ويفسر معناها كلمة كلمة .

ولطالما كان الملك الفريد الاكبر يشكو من أنه لايوجد في البلاد الواقعة بين نهري هومبير والتايمس أحد من القديسين يفهم الدعوات القديسية بلغتها الاصلية ويتمكن من ترجمة العبارات السهلة من اللاتينية . وسبب ذلك ندرة الكتب وعدم انتشارها وذلك ان الرومانيين كانوا يكتبون كتبهم على جلود مصقولة أو على رق قشر البردي ويقال له ايضاً ورق النيل لانه كان يأتي اليهم من مصر ولما كان ورق البردي أرخص كان استعماله عندهم أكثر من الجلود . وبعد أن فتح المسلمون بلاد مصر انقطعت الصلات

بين أهل مصر وأهل ايطاليا وغيرهم عن أمم اوربا فاضطر الناس أن يكتبوا جميع الكتب على الجلود فاصبحت نادرة . وقد مضت القرون على أوربا والكتابة والكتب نادرة عزيزة في كل أقطارها حتى ان لويز الحادي عشر لما استعار من جمعية الطب البشري بباريز مؤلفات الفخر الرازي أحد فلاسفة المسلمين اضطر أن يرهن مقداراً جسيما من أعلاقه

وقصارى القول فقد أصبح الاوربيون بعدان كان علماء الشرع والتاريخ منهم ينادون بما ينادون به على نحو ما تقدم آنفاً يعلمون اليوم ابن الزارع والتاجر والعامل والعالم والموظف مالا غنية له عنه في هذه الحياة الدنيا من الكتابة والقراءة الحساب ومبادىء الجغرافية والتاريخ والشريعة البسيطة . وفي فرنسا مثلاً يتعلم الجميع الا انه ينقطع ناس تفردوا بالذكاء ومن كان أهلهم في سعة من العيش يستطيعون معها الانفاق على أولادهم يدرسون الدروس العالية كالطب والصيدلة والمحاماة والهندسة والعلم والأدب وخدمة الحكومة بيد أن علماء الفرنسيس يشكون اليوم ـ وأي أمة لا تشكو من حالها حباً بالازدياد من الارتقاء ـ من المتعلمين على هذا النمط وانهم فائضون عن الحاجة وينادي علماؤهم بانهم لو الغوا درس اليونانية واللاتينية القديمتين وكفوا بنيهم مؤونة ترجمة سوفقلس وفيرجيل وانهم لو استعاضوا عنها بان ذهبوا مثلاً الى المستعمرات وزرعوا قصب السكر وباروا الالمان والانكليز في الشؤون الاقتصادية لكان أنفع لهم واجدى على مجتمعهم

يقولون ان شهادة العالمية (بكلوريا) التي سماها أحد ظرفاء الفرنسيس «جلد حمار» قد أخرتهم عن اللحاق بالامم وقد غشي على بصائر بعض العقلاء منهم فصاروا لا يرون الفضل والعقل الا فيمن درس هذه الدراسة الا ان

اهل النقد منهم يقولون ان من اسس معملا توفرت فيه الاعمال وجرت على اتمها وكثرت فيه الاختراعات والتفنن وتابراً اسس بيتاً تجارياً نجح فيه ليس في نظر المجتمع الانساني دون ذاك العالم الذي يحمل شهادته في السلم والادب بل هو فوقه . وما صح منذ نحو ثلاثين سنة للفرنسيس لا يصح لهم ان يتعاطوه اليوم والحياة الاجتماعية في تبدل مستمر والحضارة تصير من يوم الى يوم حضارة صناعية علمية . وقد قال جول سيمون احد فلاسفة الفرنسيس ينبغي ان نكون ابناء احرياء بهذا العصر كما قال العرب خلقوا اولادكم بغير اخلاقكم فانهم خلقوا لزمان غير زمانكم

الغناء المصري

الغناء صوت النفس وهو في كل أمة صورة آدابها وأخلاقها وعاداتها فبينا ترى الوحشيّ في مفازة تمشي الرياح بها حيرى مولهة وهو يتغنى بذكر الشمس والماء والشراب والعربيّ تحت القبة الزرقاء يتغنى بذكر البدر والليل والخيل اذا أنت بالحضري وهو آمن في سربه مطمئن في عقر داره لا يخشى زئير الاسد ولا يتطلب الغيث وقد احتفت به النواني والغيد ، والجواري والعبيد ، وهو يرتع في خمائل البساتين ، يتجرع كؤوس الهناء ، ويتغنى بذكر الجمال ، والتيه والدلال ، والرقيب والعذال ، والعتاب والوصال ، وترى الجنديّ يتغنى بذكر الحروب ، ويترنم باغاني الوغى ، ويطرب لوقع السيوف على السيوف ، كما يطرب الحضري لوقع الصنوج على الصنوج ، أو لدق الانامل على الأوتار والدفوف

والغناء قديم وجد مع النفس لان الانسان ما لبث لما أخذ بصره

جمال هذه الكائنات وجلال ذلك الخلق البديع أن تحركت عواطف نفسه فحركت عقيرته باصوات الغناء . ولقد بلغ الغناء العربي شأواً بعيداً فلم يكد يستقر الملك لبني العباس حتى قربوا أهل الشعر وأرباب الغناء . فكانت مجالسه عندهم تفاخر مجالس الحكمة والشعر . وكان للغناء بلابل تغرد فتطرب ، وتشدو فترقص . أقام الرشيد ببغداد قصرا على ضفاف دجلة فكان اذا أرقته الهموم يقصد ذلك القصر ويدعو اليه ابراهيم الموصلي ويضاء ذلك القصر البديع ويهب نسيم الليل حاملاً عطر الازهار فيندفع المغني يحرك الاوتار فترقص الاسماك في أمواه دجلة طرباً وتشاركه البلابل في التغريد . ومن لنا بمجلس من مجالس الأنس بالاندلس وقد ضربت علينا قبة من البلور ينحدر الماء من جانبيها وحولنا الخرد العين وبيننا مائدة القد تضم الى صدرها ابن الطرب وهو ئن من لمس أصابعها تارة ويتأوه آهة المتيم المعمود طوراً وهي تنشد :

مالذّلي شرب راح على رياض الاقاح لولا هضيم الوشاح
اذا أسى في الصباح أو في الأصيل أضحى يقول
ماللشمول لطمت خدي وللشمال
هبت فمال غصن إعتدال ضمه بردي
مما أباد القلوبا يمشي لنا مستريباً يالحظه رد ثوباً
ويالماه الشنيا برد غليل صب عليل
لايستميل فيه عن عهدي ولا يزال
في كل حال يرجو الوصال وهو في الصد

وإعجاب الناس في مصر بالغناء شديد وليس هذا الاعجاب لجمال

في الشعر الذي يتغنى به ولكنه لبراعة المغني في التوقيع وحذقه في الضرب على الاوتار فانه لا يلبث أحدهم ان يرفع صوته حتى تخال انه يدق على صنج فؤادك أو ينقر على اوتار قلبك

وأهل مصر وغيرهم في الطرب بغنائهم سواء لانه لا تزال فيه روح الغناء القديم الذي كان يتغنى به الكهنة في الهياكل والمعابد ولا يبعد ان تكون تلك الانغام أقرب الانغام الى النفس وأدناها من الجنان

ولقد يسأم المصري غناء الافرنج وهم يرفعون أصواتهم حتى تكاد تبلغ عنان السماء ثم يخفضونها حتى توشك ان تكون أخفى من دبيب النمل وهم بين هذا وذاك يلبسونها ثوب الرقة والخشونة فتكون وسطاً بين الصياح والنهيق . ولكنه لا يسأم الغناء المصري وهو يرفل في حلل تلك الانغام البديعة التي تأخذ بمجامع القلوب وتستهوي الافئدة قبل الاسماع

وليس المصريون أمة حرب فيتغنون بالشعر الحماسي الذي يستفز النفوس ويهيج العواطف ويحرك الشجاعة الكامنة في الافئدة ولسنا أمة بحارة فنتغنى بذكر الصرصر العاتية والبرق الخاطف والرعد القاصف والرياح العواصف ولسنا أمة عاملة تتغنى بذكر البخار والكهرباء والنار والماء بل نحن أمة مكسال آمنة مخلدة الى الراحة خيراتها كثيرة وأمواهها غزيرة ، نساؤنا طرب، وحياتنا لهو ولعب فلم لا نتغنى منشدين

يعيش ويعشق قلبي رق الدلال والتيه
سلطان زمانه حبي يأمر وينهى فيه

القاهرة محمد لطفي جمعة

فتيان يؤلفون

تناقلت الصحف الدورية في الغرب هذه الايام رأياً للمسيو إميل فاغي من رجال العلم في فرنسا وأحد الاعضاء الاربعين في المجمع العلمي الباريزي قال فيه : انه لا ينبغي للكاتب ان ينشر ما كتب لينفع به الناس قبل أن يبلغ الثلاثين من عمره وما هو قبل هذا السن الا معلم نفسه وممرن قلمه . وقد أذكرني هذا الرأي بان فى أمتنا من نبغوا قبل بلوغهم تلك المدة المعينة وأفادوا واستفادوا من ثمرات عقولهم . ولا يحضرني الآن من أهل الغرب الا اسم الشاعرين الانكليزيين كيت وشيلي اللذين قضيا في نحو الثلاثين من عمرهما وقد راق شعرهما كثيراً من الناقدين

أما في الشرق العربي فقد توفي ابن المقفع صاحب كليلة ودمنة وغيره من الكتب الممتعة وهو في السادسة والثلاثين . وتوفي سيبويه وهو لم يتجاوز الاربعين وقد برز في النحو حتى كان من لا يحفظ كتابه لا يعد بشيء في علم الاعراب . وفي مثل هذا السن توفي بديع الزمان الهمذاني صاحب الرسائل والمقامات البديعة . ولم يستكمل ابن سينا ثماني عشرة سنة من عمره الا وقد فرغ من تحصيل العلوم بأسرها التي عناها من أصول الدين والأدب والطبيعي والرياضي والطب وعلم الاوائل ومات في الثالثة والخمسين وقد فاق الاوائل والاواخر . وابتدأ الشريف الرضي يقول الشعر بعد أن جاوز عشر سنين بقليل . وألف ابن سبعين كتاب بدء المعارف وهو ابن خمس عشرة سنة . واقرأ ابن الاعلم النحو قبل أن يلتحي . وكتب سليمان ابن وهب للمأمون وهو ابن أربع عشرة سنة ثم لاشناس ثم ولي

الوزارة . وقال السلامي الشاعر الشعر وهو ابن عشر سنين وأول شيء قاله وهو في المكتب

بدائع الحسن فيه مفترقه وأعين الناس فيه متفقه
سهام ألحاظه مفوقة فكل من رام لحظه رشقه
قد كتب الحسن فوق وجنته هذا مليح وحق من خلقه

واستظهر الوزير أبو القاسم المغربي من أهل القرن الرابع القرآن العزيز والكتب المجردة في النحو واللغة ونحو خمسة عشر الف بيت من مختار الشعر القديم ونظم الشعر وتصرف في النثر وبلغ من الخط مايقصر عنه نظراؤه من حساب المواليد والجبر والمقابلة الى مايستقل بدونه الكاتب وذلك كله قبل استكماله اربع عشرة سنة واختصر كتاب اصلاح المنطق فتناهى في اختصاره وأوفى على جميع فوائده حتى لم يفته شيء من الفاظه وكان ذلك قبل ان يستكمل سبع عشرة سنة

ونظم الوزير اسماعيل بن حبيب النظم الفائق ونثر النثر الرائق قال في النفح: وأبو جعفر بن الابار هو الذي صقل مرآته، وأقام قناته، وأطلعه شهاباً ثاقباً، وسلك به الى فنون الآداب طريقاً لاحباً، وله كتاب سماه بالبديع في فصل الربيع جمع فيه أشعار أهل الاندلس خاصة أعرب فيه عن أدب غزير، وحظ من الأدب موفور، وتوفي وهو ابن اثنين وعشرين سنة واستوزره داهية الفتنة ورحى المحنة قاضي اشبيلية عباد جد المعتمد ولم يزل يصغي الى مقاله ويرضى بفعاله وهو ماجاوز العشرين اذ ذاك وأكثر نظمه ونثره في الازاهر وذلك يدل على رقة نفسه .

هذا ومن يستقرئ التاريخ يجد امثلة كثيرة للنوابغ قبل السن الذي ضربه

الكاتب الافرنسي على ان النفع اذا لم يحصل ممن بلغ الرشد فاحر به ان لا يحصل أصلا وحصول النفع الحقيقي من ثمرات أعمال الكاتب قد لايكون في الثلاثين ولا في الاربعين من عمره ولذلك قيل

اذا بلغ الفتى عشرين عاماً ولم يفخر فليس له افتخار

الجنون بالكتب

الغالب ان عشاق الكتب كعشاق الجمال أو هم أضل سبيلا ، فتراهم هائمين خاملين لايعون على شيء في الارض ولا يحفلون بعظائم الأمور فضلا عن صغارها ، يجعلون الكتب روحهم وراحهم وريحانهم ، بل فروضهم ونوافلهم وأحاديثهم وأشغالهم . وكل شيء اذا جاوز الحد انقلب الى الضد . وكذلك الحال بعاشق الاسفار فربما جوّز لنفسه السرقة ولكن سرقة الكتب بل وربما أفتى بحل ذلك لمن يستفتيه . ولقد قرأت فصلا لاحد كتاب الفرنجة فآثرت تلخيصه كما يلي : أقر أحد عشاق الكتب يوماً في انكلترا عن نفسه واسمه ديبدن (١٧٧٦ – ١٨٤٧) انه هم يوماً ان يسرق وحمد الله على ان خلا بنفسه في خزانة كتب ستراسبورغ ولم تحدثه نفسه بسرقة كتاب منها . وكان خطر على بال رجلين في انكلترا ان يطبعا لانفسهما خاصة كتاباً يكون آية في طبعه ووضعه وصوره وورقه وتجليده ولم يطبعا منه غير نسختين . فما كان الا كلا ولا حتى حدثت أحدهما نفسه بان يذهب الى دار صاحبه ويستأثر دونه بالنسخة فيسرق بعض صورها حتى تكون نسخته هي التي يرجع اليها فراح في غياب صاحبه الى زوجه وطلب اليها ان تريه النسخة لغرض بدا له فدفعتها اليه وجعل يقلبها مهتماً بأمرها ثم استغفلها

فمزق بعض صور الكتاب وجعلها في جيبه وانصرف فلما عاد صاحبه ارتاب في مجيء صاحبه وقلب أوراق الكتاب فرأى مافعله فرفع عليه قضية حكمت له فيها جمعية الكتب بألفي جنيه تعويضاً .

وقد راودت أحد هؤلاء الغلاة يوماً نفسه ان يحرق مكتبته بعد ان زار مكتبة الدوك دومال ابن لويز فيليب أحد ملوك فرنسا المتوفى سنة ١٨٩٧ اذ مزق الحسد والطمع والغيرة احشاء ذاك الرجل . بيد ان العريق في محبة الكتب الحقيقي هو محب الآداب أيضاً وعضد المعارف فيغتبط اذا ظفر غيره بكتب لم يسعده الحظ بمثلها ويأمل ان يكون من ورائها مغنم كبير للمطالعين والدارسين .

ومن غرائب هؤلاء العشاق غليوم بودي (١٤٦٧ — ١٥٤٠) قال إنه اغتنم الفرصة يوم عرسه فر بكتبه قبل ان يبني بعرسه ومع هذا رزق بنين وبنات وهو الذي يروى عنه ان خادمه جاءه يوماً وهو يلهث فقال ان لسان اللهيب أخذ يندلع على البيت وكان امام كتبه بالطبع فاجابه قل لزوجي وهلا تعرف انني لاأتداخل في أمور المنزل .

وأغرب من هذا ما أجراه أدرين تورنيب من مشاهير اليونان واحد فلاسفة القرن السادس عشر (١٥١٢ — ١٥٦٥) فانه نسي يوم عرسه الذي يقضى عليه بان يجتمع في يومه بالناس . وكذلك كان من أمر فردريك مورل لجون من علماء فرنسا المشتغلين وكان يبحث في اخبار ليبانيوس السفسطائي اليوناني فجاء رسول يقول له ان زوجته تريد ان تكلمه بضع كلمات وكان يحبها حباً جماً فقال له دعني الآن انظر هاتين الكلمتين لكن المهلة التي طلبها طالت واستبطرت فبعثت اليه برسول آخر قال له ان زوجك

كادت تفارق الحياة فحوقل وامتدح منها وردد بعض مآثرها وسيرتها الصالحة وعاد يغوص في بحر كتبه .

ومات القس كوجي (١٦٩٧ — ١٧٦٧) حزناً لانه أكره على بيع كتبه . ويروى مثل ذلك عن سكاليجر العالم الطلياني المتوفى سنة ١٥٥٨ وبأرو الفقيه الفرنسوي المتوفى سنة ١٦٨١ فقد قال الاول إن رمت أن تصاب باعظم خطوب الارض فبع كتبك تلق الشقاء ومن رام أن يجمع على رأسه ضروب البلايا صفقة واحدة فما عليه إلا أن يبيع كتبه . ورأى يعقوب غوبيل (١٥٦٤) من مشاهير فرنسا مكتبته نهب أيدي الضياع والسلب في فتنة عصابات الكاثوليك فمات يائساً بائساً . وحزن العالم الكتبي كولنه دورافل الفرنسوي حزناً ولا حزن يعقوب على يوسف لما رأى كتب الابرشية تطفو على نهر السين وكان يقدر قيمتها حق قدرها لانه رتبها وبوبها .

واضطرت الحاجة اللغوي برونك من ستراسبورغ (١٧٢٩ — ١٨٠٣) أن يبيع جانباً من مكتبته واشتد حزنه عليها حتى كان اذا ذكر أمامه مؤلف اقتناه وباعه في جملة ماأباعه تنحدر عبراته على خديه طوعاً كرهاً . واضطر الامير كاميراتا في القرن التاسع عشر ان يبيع اسفاره في المزاد العلني ولم تكد توزع على مبتاعيها حتى انتحر بيده وقال بيدي لا بيد عمرو . ويقرب من ذلك مافعله الكونت لا يدوبير فانه توهم ان كتبه اتعبته فباعها فما هو الا يوم وليلة حتى عاد يشتريها ثانية بكل مرتخص وغال فاشبه في حاله ولداً مبذراً غادر بيت أبيه

وحدث ان أحد الاميركيين المستر بريان وهب احدى المكاتب

مجاميع نفيسة من روايات نادرة فلم تمض أيام حتى عاد الى قيم المكتبة يطلب اليه ان يرى كتبه فاخذ يحدق بها ويصوب في جلودها ويصعد فظن القيم ان صاحبه ينوي ان يسترجع ماوهب ولكن راح المسكين فانتحر بعد يومين وعزّ عليه ان يفعل فعلته قبل ان يودع محبوباته قديماً ويرعى لهن ذمامهن . ومات المركيز شالابر في القرن التاسع عشر قانطاً مخفقاً لكونه لم يتمكن من ابتياع نسخة من التوراة ثمينة . قيل إنه كان في محفظة جعلت في جلدها أوراق مالية بأربعين الف فرنك فعثر عليها الكتبي لما اشتراها من صاحبتها فاعادها اليها . وقضى بترارك (١٣٠٤ — ١٣٧٤) في مجلسه ولما استبطأه أصحابه أطلوا عليه فوجدوه ميتاً والكتاب في حجره . وكذلك مات الصحافي ارمند برتين (١٨٠١ — ١٨٥٤) مدير جريدة الديبا وكان له مجاميع من أجمل القنيات والكنوز ذكروا انه مات بين كتبه عقيب وفاة حليلته فوجدوه ماسكاً بكتاب كانت هي تحبه في حياتها فجاءه الموت وهو على هذه الحال

ومات المؤلف يعقوب برونه (١٧٨٠ — ١٨٦٧) وهو على كرسيه وبين كتبه بعدان عمر طويلا ولا شغل له غير الدرس والتبحر . وقضى الجماعة موبللي منذ نحو نصف قرن وكانت مكتبته تساوي مئة الف فرنك ولم يوجد عنده من الدراهم مايكفي نفقات دفنه . ومن عشاق الكتب من سقطوا عن سلالم مكاتبهم فقضوا نحبهم ومنهم ايبرت (١٧٩١ — ١٨٣٤) من غلاة الكتب في درسد والمركيز مورانت (١٨٠٨ — ١٨٦٨) الاسباني وروفرو غيرهم . والمؤرخ الكاتب تيودور مومسان الالماني (١٨١٧ — ١٩٠٣) ذهب الى خزانة كتبه ذات يوم والشمعة بيده فسرى لهيبها الى لحيته البيضاء وقضى بعد شهر متأثراً

وأعجوبة المولعين بالاسفار انطون ماكليابيشي (١٦٣٣ - ١٧١٤) من مدينة فلورنسا فقد خدم لاول أمره في دكان فاكهانية وأخذ ينظر في الأوراق التي تصر بها الفاكهة فوقع في نفسه ان يتعلم القراءة فاتصل بكتبي ولم يعدم من يدرسه ويعلمه وكان ذا ذاكرة قوية ماحفظ شيئاً ونسيه وحفظ من اسماء الكتب ومظانها حتى اصبح عبارة عن مكتبة سيارة ثم اتصل بالغراندوق كوسم الثالث وجعله قيماً على كتبه ولم تكن هذه الكتب لتشفي مطامعه بل أخذ يطالع فهارس المكاتب الأوربية مطبوعها ومخطوطها ويسأل كبار العلماء السياح عن نوادرها حتى صار يعرف كل دقيق وجليل من أحوال الكتب وكانت له طريقة غريبة في المطالعة فاذا اخذ كتاباً لم يكن طالعه من قبل ينظر في اسمه وفهرسته ومقدمته وتقدمته ويتصفح اوائل فصوله وبعد دقائق يقول لك رأيه في موضوع الكتاب والمصادر التي أخذ منها مؤلفه ولا ينسى ذلك على الدهر . ولم تكن له عناية بهندامه ونظام معيشته بل كان في ليله ونهاره مستغرقاً في أسفاره لايخرج الا إلى مكتبته . وكان أعلى بيته واسفله ومدخله وحجره ونوافذه كلها ملأى بالكتب . وهو غريب في خموله حتى كان يأكل في الغالب بيضاً وخبزاً و ماء - والخبز والماء أكل العلماء كما قيل - ولطالما سرق له خدامه وخدام جيرانه دراهم من خزانة بقربه كان يضع فيها البيض والدراهم معاً وقد أراده البابا والملك ان يتمثل بين ايديهما فتجاهل ماأمرا به وعاش على كسله احدى وثمانين سنة واوصى بمكتبته لبلده وكانت تبلغ ثلاثين الف مجلد وجعل لها مورداً تعيش به وما زالت معروفة به الى الآن .

الميت الحي

تكاد عيوني تقرأ الغيب في الدجى ... وتسمع أذني فيه ما تضمر النمل
وما أنا من قوم تهون نفوسهم ... عليهم اذا خانتهم الصحب والاهل
فلي من مضائي رفقة وعشيرة ... فلا سيد يناى ولا صاحب يسلو
فياحظ لا تسعد وياخل لاتزر ... ويادهر لاتعدل وياعيش لاتحل
فما هاجني سخط ولا كفني رضا ... ولا ساءني ظلم ولا سرني عدل
وما قتلتني الحادثات وانما ... حياة الفتى في غير موطنه قتل
وما أبقت الدنيا لنا من جدودنا ... على بأسنا ما يستقيم به الظل
ولولا اختلاف الناس ماقال قائل ... عجبت لفرع لا يشاكله أصل
فهل أرشدت تلك النمال الى الحجى ... وهل أرضعت بالشهد في كورها النمل
يحار الفتى في عيشه ومماته ... فأولها جهل وآخرها جهل

وقلت وقد سألني (حافظ ابراهيم) لِمَ لم تتزوج

ياخليلا وأنت خير خليل ... لاتلم راهباً بغير دليل
انا ليل وكل حسناء شمس ... فاجتماعي بها من المستحيل

القاهرة

محمد امام العبد

التسمم بالتبغ هو أيضاً من الجراثيم الاجتماعية التي صيرها هذا العصر تفارد . فالتبغ هو ذاك السلي الذي يستعمله الجندي والملاح والزارع والصانع والعامل والعالم . يدفع ببعضهم الى العمل ويسكن في بعضهم شيئاً من انفعالات النفس . ومن العجيب ان الاوربي الذي ذهب الى أميركا يبث نور المدنية في عقول برابرتها قد أسف الى الاخذ عنهم فاقتبس منهم عادة التدخين مع علمه انهم دونه في الذكاء والعلم . فقد نقل الاسبانيون سنة ١٥٦٠ عادة التبغ من المكسيك الى لشبونة ومنها انتقلت الى الديار الاوربية فاولعت النفوس بها . حتى إنه ليصرف على التدخين وما يلحقه من الثقاب (الكبريت) والطب والفلايين والورق والانابيب مبالغ جسيمة لو صرفت في تطهير المدن الكبرى وترقية المعارف العمومية وانشاء دور لعجزة العملة لاتت المجتمع الانساني بفوائد لا تقدر ولئن كان الضرر المشاهد من التدخين أقل من ضرر المسكر فان مما لا يختلف فيه اثنان ان إدمان التدخين يحدث إضطرابات في القلب وضعفاً في البصر قلما تشفى الا بالاقلاع عن هذه العادة السيئة .

والامراض الزهرية إحدى رذائل هذا القرن فانها هاجمت طبقات المجتمع كله من الفتى اليافع الى الشيخ الهم ومن مرضع سليمة الى طفل ورث عدواه من أبيه وأمه فهو اشد فتكاً في إفساد الجنس البشري من عامة الاوبئة التي انتابت المجتمع في أدوار الحقب . وما دام الجهاد في الحياة يتزايد كل آن وطرق العيش تتصعب فان أسباب الزواج الشرعي تقل ويقل الراغبون فيه بل وما دامت الخدمة العسكرية لامناص منها في سن مخصوصة

من أيام الشباب فان من العبث منع أسباب الفجور ليضرب دون هذا المرض الوبيل باسداد منيعة .

وزاد انتشار السل الرئوي في الخمسين سنة الاخيرة فاصيبت به طبقات الناس على اختلافهم في البلاد المتمدنة وقد شوهد أنه يفعل في الغالب بالجند في تكنهم والعاملين في معاملهم والسجناء في حبوسهم لان الاختلاط الشديد هو من أهم أسباب انتقال العدوى والمصابون بالسل هم بين العشرين والخمسة والعشرين من عامة الوفيات في سائر الامراض ويصيب الشبان والشيوخ غالباً . ومما يساعد على كثرة فتكه ماعدا انتقاله بالوراثة سوء العناية بالصحة كما هو المشاهد في البلاد الكبيرة فان الأقدام تزدحم في الاحياء الضيقة والبيوت المظلمة التي لا تنفذ اليها الشمس ولا يتجدد فيها الهواء فتحدث في الاجسام ماتحدث . أضف الى هذا كمية الغذاء وكيفيته على النحو الذي يتناوله العملة مما لا نسبة بينه وبين الاعمال الشاقة التي يتعاطونها ويقتضي لها من معوضات القوة ما يكفي ويشفي

ومن الاوصاب التي شاعت في النصف الاخير من القرن في بلاد التمدن أمراض من دواعيها الاضطراب في التغذية والاكثار من الطعام وتدعى بلسان الطب ديسترو فيك وهي على أشكال فمنها الرئية أو وجع المفاصل وأوجاع تصيب المثانة وتجعل فيها عسراً . وتجد المصابين بها زرافات كل سنة يغتسلون بالمياه المعدنية في فيشي وكارلسباد . وكان القدماء يظنون ان هذا المرض خاص بالاغنياء الا أنه تبين مؤخراً انه ماخص طبقة واحدة من الناس .

ومما عمت به البلوى من الامراض في عيدنا وسببه الغذاء سلس البول

الكري . مرض وان اختلفت الاقوال في أسبابه فانها لا تعدو ان تكون تأثرات أخلاقية مضنية واضطرابات وحصر للذهن عظيم وعمل عقلي مفرط وأوصاب طبيعية طويلة وأرق وقلة إغفاء . وكل ما يضعف الوظائف الدماغية ويصرف كثيراً من قوة الاعصاب . ومعظم من يختلفون الى المياه المعدنية يستشفون بها هم من العلماء والساسة والماليين وأرباب الصنائع والاشغال والصيارف ممن حملوا أنفسهم فوق طاقتها .

وهنالك كثير من الامراض الحديثة التي جاءت مع الحضارة وهي من مفسدات الدم كالخنازير وأنواع الفقر الدموي وغيرها . فكما ان الكوليرا انتقلت الى أوربا من آسيا فكذلك نقل أهل أوربا الى أميركا وآسيا وجزء من إفريقية الحمى التيفوئيدية فانها وان عرفها القدماء باسم حمى خبيثة عفنية لم تعرف في أوربا الا في سنة ١٨٢٠ . وقد انتشرت الدفثيريا أو الخناق في هذه السنين انتشاراً وبيلا حتى صار مرض الدفثيريا إحدى المصائب المهلكة للاطفال يشترك في التلقيح بجراثيمها أبناء القرى والمدن معاً وذلك لما يبذل من القوى العصبية في جهاد الحياة وبفضل تعدد طرق المواصلات واختصار الابعاد فتنقل جراثيم عدواها بسرعة من البلاد الموبوءة بها الى البلاد السليمة منها . والنزلات قد اشتدت وطأتها كثيراً وصارت وبائية وافدة تفتك فتكا ذريعاً

المومياء المصرية

لحكمة غابت عن الباحثين حنط قدماء المصريين جثث موتاهم وجعلوها مومياء منذ نحو سبعين قرناً . عثر علماء الآثار المصرية على اكثرها

في زواويس ومدافن ووضعوا بعضها في المتاحف ودور العاديات لتشهد لتلك الحضارة القديمة بالرسوخ والارتقاء . ولم يكتف المصريون بتحنيط الملوك والملكات والعظماء والعظيمات والاولاد والنساء والعبيد والاماء بل تناولت أيديهم بالتحنيط ضروباً من الحيوانات تعد بالوف الوف الالوف كشف اكثرها فاستعمل في تسميد الارض وتزييلها

وقد أخذ المسيو ماسبرو مدير مصلحة الآثار المصرية طائفة من هذه الحيوانات والطيور المحنطة ودفعها الى علماء من أهل الاختصاص فتعاورتها الايدي بالبحث والعيون بالنظر والافكار بالتأمل . والف اليوم عالمان طبيعيان من مدينة ليون كتاباً في الحيوانات الخاصة بهذا القطر فما قالاه فيه: لقد ظفر في مدافن الحيوانات بانواع من القرد والكلب وابن آوى والهر والجرذ والضب والثور والظبي والغنم والعنز وغيره وبضروب من الطيور ونحو ثلاثين نوعاً من الجوارح واكلة الحشرات والثمرات والتماسيح والحيات والاسماك وحيوانات لافقار لها من ذوات الصدف

ثبت للباحثين الموما اليهما ان حيوانات اليوم لم يختلف شكلها وخلقها عن الحيوانات التي حنطت قبل ستين قرناً اذ ما من مشتغل بالعلوم الطبيعية الا ويأتيك بأمثلة كثيرة من الحيوانات التي لم تتغير خلقتها منذ مئات من القرون بل منذ ألوف . وهناك ضرب من ضروب الحيوانات يدعى بلسان الحيوان (براشيوبود) يرد عهده الى أقدم عصور العالم .

ومعلوم انه لا يتأتى حدوث القلب والابدال في سحنات الانسان والحيوان الا بتغيير البيئة والمحيط ولما لم تتغير طبائع هذا القطر منذ ألوف من السنين فلا يعجبن القارئ لما أكده العالمان الفرنسويان من بقاء

الحيوان على وتيرة واحدة منذ قرون . كان الهر مقدساً عند قدماء المصريين ولذلك عثر على كثير منه محنطاً وقد تجد بين القطط ماولد حديثاً وماهي أجنة في بطون أمهاتها . والهر المصري نوعان داجن ووحشي وهذا هو الذي كانوا يحنطونه ويقدسونه

وبعد فقد قدس المصريون اللقلق لانه يأكل الهوام التي كانت تغير على شواطيء النيل وكان من هذا اللقلق الابيض والاسود وعثر على كثير من الاسود في المدافن القديمة محنطاً أما الابيض فانقرض منذ مئة سنة وهو موجود في الحبشة بكثرة ولعلّ النيل كان يأتي به . وقدس المصريون الغنم وهو نوعان إدعى بعضهم ان أحدهما جاء من آسيا على نحو ما جرت العادة ان ينسب لهذه القارة كل نوع من انسان وحيوان ونبات وتوصف بانها مبعث جماع الحضارة ومهد الكائنات . اتفقت الأديان وبعض الفلاسفة وجملة من الاساطير على ان الشرق مقيل أرق الكائنات الحية . إلا ان العالمين الباحثين أثبتا بالبرهان أن هذه الحيوانات نشأت في قارة إفريقية على أن الملك سنفرون لما خرب النيل الاعلى وأتى من السودان بسبعة آلاف رجل وامرأة ومائتي الف بقرة وغنمة جاء بالغنم المدعو «لونجيب» الى هذه البلاد من السودان

وفي هذا الكتاب بحث في تحنيط البقر ـ وبقرة بني إسرائيل صفراء فاقع لونها تسر الناظرين ـ وكان يظن أن بعض البقر المصري جاء من آسيا وبعبارة ثانية من سورية إلا أنه وجد منه هنا ما يماثله ودثر بعضه . ومن رأيهما أن البقر الذي حنطه قدماء المصريين كان من البقر الهندي ذي السنامين الموجود منه الى الآن بكثرة في سهول مصر العليا . وقصارى القول

فان الباحث في تاريخ الانسان والمؤرخ والطبيبي يرون في كتاب هذين العالمين مادة لطيفة في الكائنات بهذه البلاد وهذه المباحث طافحة بالفوائد في تاريخ الحضارة خاصة وتاريخ الكائنات عامة .

صحف منسية

شعر ابن حزم

قال الفقيه أبو عبدالله الحميدي قال كان لشيخنا الفقيه أبي محمد بن حزم في الشعر والادب نفس واسع وباع طويل وما رأيت أسرع بديهة منه وشعره كثير وقد جمعته على حروف المعجم ومنه ما كتبت عنه

هل الدهر الا ما رأينا وأدركنا ... فجائعه تبقى ولذاته تفنى
اذا امكنت فيه مسرة ساعة ... تولت كمر الطرف واستخلفت حزناً
الى تبعات في المعاد وموقف ... نود لديه أننا لم نكن كنا
حصلنا على هم واثم وحسرة ... وفات الذي كنا نقر به عينا
حنين لما ولى وشغل بما أتى ... وغم لما يرجى فعيشك لا يهنا
كأن الذي كنا نسر بكونه ... اذا حققته النفس لفظ بلا معنى

قال وله أيضاً من قصيدة خاطب بها قاضي الجماعة بقرطبة عبدالرحمن بن بشير يفخر فيها بالعلم ويذكر أصناف ما علم يقول فيها

انا الشمس في جو العلوم منيرة ... ولكن عيبي ان مطلعي الغرب
ولو أنني من جانب الشرق طالع ... لجد على ماضاع من ذكري النهب
ولي نحو أكناف العراق صبابة ... ولا غرو ان يستوحش الكلف الصب

فان ينزل الرحمن رحلي بينهم فحينئذ يبدو التأسف والكرب
فكم قائل أغفلته وهو حاضر وأغلب ماعنه ما تجيء به الكتب
هنالك يدرى ان للبعد قصة وان كساد العلم آفته القرب
فوا عجباً من غاب عنهم تشوقوا له ودنو المرء من دارهم ذنب
وإن مكاناً ضاق عني لضيق على انه فيح مذاهبه سهب
وإن رجالا ضيعوني لضيع وإن زماناً لم أنل خصبه سغب

ومنها في الاعتذار في مدح نفسه

ولكن لي في يوسف خير أسوة وليس على من بالنبي ائتسى ذنب
يقول وقال الحق والصدق إنني حفيظ عليم ماعلى صادق عتب.

وأنشدني لنفسه

لايشمتن حاسدي ان نكبة عرضت فالدهر ليس على حال بمترك
ذو الفضل كالتبر طوراً تحت مبتعة وتارة في ذرى تاج على ملك

وأنشدني أيضاً له

لئن أصبحت مرتحلا بشخصي فروحي عندكم أبداً مقيم
ولكن للعيان لطيف معنى له سأل المعاينة الكليم

وقد كرر أيضاً هذا المعنى فقال :

يقول أخي شجاك رحيل جسم وروحك ماله عنا رحيل
فقلت له المعاين مطمئن لذا طاب المعاينة الخليل

قال أبو عبدالله الحميدي وقلت له يوماً قول أبو نواس :

عرضن للذي تحب بحب ثم دعه يروضه ابليس

فقال أنت في طريق التحقيق فقال :

أبن قول وجه الحق في نفس سامع ودعه فنور الحق يسري ويشرق
سيؤنسه رتقاً وينسى نفاره كما نسي القيد الموثق مطلق

وأنشدت له (صاحب الذخيرة) أيضاً في ما كان يعتقده من المذهب الظاهر من جملة أبيات يقول فيها :

وذي عذل في من سباني حسنه يطيل ملامي في الهوى ويقول
أفي حسن وجه لاح لم تر غيره ولم تدر كيف الجسم أنت قتيل
فقلت له اسرفت في اللوم ظاهراً وعندي رد لو أردت طويل
ألم تر أني ظاهري وانني على ما بدا حتى يقوم دليل

وقال هذا الامام الشاعر

قالوا تحفظ فان الناس قد كثرت أقوالهم وأقاويل العدى سخن
فقلت هل عيبهم لي غير أني لا أقول بالرأي اذ في رأيهم فتن
وانني مولع بالنص لست الى سواه انحو ولا في نصره اهن
لا انثني نحو آراء يقال بها في الدين بل حسبي القرآن والسنن
يا برد ذا القول في قلبي وفي كبدي ويا سروري به لو انهم فطنوا
دعهم يعضوا على صم الحصا كمداً من مات من قوله عندي له كفن
اني لاعجب من شأني وشأنهم واحسرتا انني بالناس ممتحن
ما إن قصدت لأمر قط اطلبه الا وطارت به الاظعان والسفن
اما لهم شغل عني فيشغلهم أم كلهم بي مشغول ومرتهن
كأن ذكري تسبيح به أمروا فليس يغفل عني منهم لسن
ان غبت عن لحظهم ماجوا بغيظهم حتى اذا مارأوني طالعاً سكنوا
دعوا الفضول وهبوا للبيان نكي يدري مقيم على الحسنى ومفتتن

وحسبي الله في بدء وفي عقب ... بذكره تدفع البلوى والاحن

وقال : بلغت من لذة الدنيا ذرى أربي ... في لذة العيش والسلطان والنشب

فاذهبت دول الايام منزلتي ... وزاد فقدي للذات في كربي

وكان مالي لهذا كله تبعاً ... بل صار عوناً لاعدائي على طلبي

لكن رجعت وقد جد الزمان الى ... كنز من العلم والاخلاق والادب

فاعجز الدهر ان يودي بواحدة ... منها واقصر عني واهي السبب

لا اختشى تضع الايام منزلتي ... مدى الزمان وعندي اغلب الطلب

لا يستطيعون عذلي عن ولايتها ... اذ كل وال لهم بالعزل في العقب

هذا بلا كلفة مني ولا حرس ... ولا عديد ولا إنفاق مكتسب

وكل من كان في دنياي يصحبني ... ناديته حين سانتني فلم يجب

كلام من جرب الامرين واتضحت ... له المذاهب من جد ومن لعب

انا ابن من دبر الدنيا بخاتمه ... عشرين عاماً وعشر بعد لم يرب

وان منزلتي في العلم منزلة ... في الملك حظ كحظ الصادق النسب

مازلت اذخره دهري وانفقة ... (دأبا) كمثل اللجين المحض والذهب

وانني لبخيل بالسلام اذا ... بخلت بالعلم من لفظي ومن كتبي

لو استطعت منحت الناس كلهم ... ماقد تجمع في حفظي وفي كتبي

أأبذل المال يفني البذل حاصله ... ولست ابذل مايبقى على النهب

سائل بأي علوم العالمين تجد ... عندي ينابيع ذاك العلم من كتبي

التعليم والتربية

الاسراف وسوء السلوك

مقتبسة من كتاب نصائح العملة

ان ما اعتاده بعض العملة من اهمال الاعمال ذهاباً مع هوى النفس قد يكون أبداً من ورائه ما يدعى بسوء السلوك . ومن عرف بهذا الميل فقد اطرح حلل الشرف في الانسان ولبس رداء من الشرور قد يتعذر اطراحه في الغالب . لا يستحق اسم الانسان الا من جعل شهواته واهواءه ورغائبه محكومة بنظام العقل على الدوام موضوعة على محك البصيرة والتدبر . ولا يسعد الا من جعل هذا الخضوع عادة فيه لا يتكلفها ولا يجهد نفسه من أجلها . فعلى الشهوة ان تكون أبداً مطيعة وعلى العقل ان يأمر ولكن اذا أمرت الشهوة واذعن العقل فقد المرء العقل والسعادة . وعدم اعتدال العامل في شؤونه دليل سوء تصرفه وتجانفه عن جادة الاستقامة وطرق الكرامة .

سهل على العامل من الاسف ان يتخلق بهذا الخلق في شبيبته وقبل زواجه أيام يكون في إبان قوته ونضارة صحته يتناول اجرة تفيض عن حاجته فيفيض منها على هواه ما يكفي رجلا متزوجاً في إعالة عياله . فان أجرة أمثال هؤلاء العملة الشبية الفتيان لا يكادون يقبضونها حتى يصرفوها في كل سبيل وينفقوها في لا يرضي . ومهما كثرت فان لها مصارف تستغرقها برمتها ولا تبقي منها ولا تذر . والسرف متلفة كل شيء يتأصل على العادة

في النفس مما يخشى منه بعد ان يتعذر اقلاع العامل عن هذا الخلق فيعيش بعد زواجه كما كان يعيش عزباً

لا أجمع بين الانحراف المؤقت وسوء السلوك على ان الثاني يتولد من الاول بسهولة . وما من امرىء لايدرك الى أين يؤدي الانحراف عن جادة الفضيلة لاول أمره . ومن الهين اللين ان يسقط الانسان من الطيش الى الاضطراب ومن هذا الى سوء السلوك . وارحمتاه لمن لايحسن مقاومة شهواته الاولى فان الهواء الذي يستنشق في المجتمعات وقد ركب الطيش اجزاءه ليحل في تضاعيفه اضطراباً وبحراناً في الحواس وينتهي بضرب من السكر الادبي ويصعب تبديد شمله بقدر ماترتاح النفس اليه . ومع هذا فقد يرى الطائشون عبثاً اصلاح نفوسهم من هذا السكر وانه موقت لايلبث المنغمسون فيه ان يرجعوا عن غيهم . ولكن تجيء الايام تلو الايام والاسابيع تلو الاسابيع والشهور عقيب الشهور والنفس لاترجع عن غيها وغلوائها .

ولقد انشئت في انكلترا وأميركا جمعيات دعيت جمعيات الاعتدال بغية انقاذ العامل بل اضطراره الى عدم اهمال العمل وسوء استعمال أوقات فراغه فاسفرت هذه الجمعيات عن بعض النجاح فيقضي على من يريد الانخراط في سلك هذه الجمعيات ان يقسم ايماناً مؤداه ان يتخلى عن استعمال أي شراب من المسكرات كان . ولكن حظر استعمال شيء حسن في ذاته ليكون المرء على ثقة من سوء استعماله معناه قلة الثقة بنفسه ومن المتعذر ان يكون لامرىء لايعتبر نفسه ويثق بها من القوة ان يتغلب حيناً من الدهر على سلوكه فيجعله تبعاً لارادته وارادته تبعاً لكلامه . ولذلك ترى هذه

الجمعيات عرضة للسقوط كثيراً لانه لو لم يكن للمرء من نفسه وازع يقيه المضال والانغماس في حمأة السفاهة ليس لجمعية ان تناله منه بمجرد حلف يمين والقيام بمظاهر عظيمة

لا تنتهي الانفس عن غيها ما لم يكن منها لها زاجر

ومن استنار عقله بنور العقل الصحيح هيهات ان يحيد عن الجادة المثلى ويتعدى حدود الادب واللياقة . ومن الشبان من يأتون المنكر فيقولون هذه المرة الاخيرة ونحن لا نأتي منكراً بعد . فهلا قالوا مثل هذا القول من قبل وصرحوا بانهم لا يأتون المنكر ولا هذه المرة أيضاً فما هو الا ان تستلب هذه المنكرات من أرباب العقول عقولهم حتى اذا أراد أحد المتلبسين بها ان يرجع عنها بعد ان تكون نفسه مجبولة يتعذر عليه ذلك . تعرف هذا من عملة انقطعوا عن أعمالهم أياماً وراحوا يقضون أوقاتهم في القصف والسكر فتراهم باديء بدء قد وجدوا شيئاً من النشاط ان صح ان يسمى نشاطاً حتى اذا كان اليوم الثاني تصفر الوانهم وتنقطع أيديهم عن كل عمل فيصبحون باهتين شاخصين ثم لا يلبثون ان يعربدوا ويصخبوا وربما طالت أيديهم بالتعدي على أبناء السبيل تدفعهم الى ذلك عوامل الخمار

الا وان سوء السلوك لتستوحش منه النفوس ويفسد القلوب بما يصحبه من الافراط الذي ينهك الصحة فيعجل الهرم ويهيء السبل للامراض العضالة . إفراط تتلبس به النفس فيقودها من ضلال الى آخر حتى يتناسى صاحبها ما يقضي به الشرف ويحيد حياداً ظاهراً عن مهيع الشرائع . وعقاب سوء السلوك بسيط فهو يميت القلب ويقتل في صاحبه التوبة والانابة وما هو الا ان يضعف النفس عن الاحساس الطيب والافكار الصالحة ويميت

في نفسه كل شعور حي . يعمل ولكن من دون لذة . بل مكرهاً وما هو الا كلا ولا حتى تصير البالة في عينه عبئاً ثقيلاً والعمل عذاباً أليماً فيبلغ حالة لا يبلغها من المرء اعدى أعدائه وهل أشد خطراً من عدو داخلي يهدك القوى ويهدم الاسس . وقد قيل اعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك والانكى من ذلك ان من يألفون الدعارة ويأخذون أنفسهم بالفسق لا يلبثون ان يعاشروا من هم على شاكلتهم على نحو ماجاء في الامثال ان الطيور على اشكالها تقع وشبيه الشيء منجذب اليه . وهناك حدث ماشئت ان تحدث عمن يلقاهم من سخاف العقول وضعاف الآداب ينشط كل منهم صاحبه ويهيء له سبيل الرذيلة ويحببها اليه ويراهم أبداً وأحاديثهم تدور على تلاعبهم وخلاعتهم ورقاعتهم في بيوتهم وأسرتهم ومع الناس أجمعين

وهكذا ترى سوء السلوك يفسد القلب وينضب مادة الشعور الطيب الخالص فيصبح صاحبه مكروهاً فلا يعيش عيش الانسان بل عيش الحيوان فسوء السلوك هو الداء العامل يبعد به عن النجاح والراحة والسعادة . ويارب ماذا تكون حال العامل اذا ضعفت قواه وأسلمه سلوكه الى الشقاء مدى العمر مؤدياً به كل يوم الى أحقر المساكن . فاما ان يرميه مريضاً على حصير المستشفى أو على حضيض ملجأ الفقراء أو يموت تحت مبضع تلامذة الطب في المستشفيات .

ولا تسل عما يجلب هذا الحال من فساد نظام البيوت فان الزوج أيضاً تحذوحذو زوجها وتنصرف الى الرذيلة فترضع أبناءها سما زعافاً من فسادها فما هو إلا أن يضيع عليهم مستقبلهم ويتعذر عليهم التحلي بالاخلاق الصالحة ولا يزال الفساد يدب من جيل الى آخر ينقله الأب لابنه والأم لابنتها

حتى تنحل بيوت أولئك الصناع وكانت من قبل يتأتى لها ان تؤسس على التقوى وتعيش في هناء ويمسي أفرادهم وهم حلفاء شقاء وامتهاز.

وبعدفاني أتقدم الى من استرسلوا في هوى النفس إن يصلحوها ولا يقولوا الصيف ضيعت اللبن ولكن جئت في الزمن الاخير فان إصلاح النفس يتأتى في الكبر كما يتأتى في الصغر . ومن لا يضبط نفسه زمان الفتوة وهو عهد العقل ومن الاماني الطاهرة والاخلاص الشريف هيهات ان يجيء منه ما ينفع أمته وينتفع هو به. فاصلاح النفس لازم في الكبر أكثر فاذا استقام أمر المرء شهوراً بل أياماً قبل موته لا بد ان ينال اعتبار الجمهور بل الانابة مطلوبة فيمن أبيض شعره حتى لا يجمع الى الشيخوخة اهانة الناس وما على من ابتلوا منذ شبيبتهم بهذه المساوئ الا أن يحاولوا الاقلاع عنها وتصح عزائمهم على ذلك فللارادة شأن في سلوك الانسان ومن لا إرادة له لا يعد في البشر .

مطبوعات ومخطوطات

العربية ولهجاتها

وهي رسالة كتبها بالافرنسية حضرة العالم المدقق الكنت دي لاندبرغ الاسوجي وقدمها الى علماء المشرقيات في المؤتمر الدولي الرابع عشر المجتمع مؤخراً في الجزائر. والمؤلف من شيوخ العلم في اللغات الشرقية وخصوصاً العربية وله أصحاب كثيرون في بلاد العرب عرفوه في خلال رحلاته العديدة الى بلادهم ولا سيما في مصر وسورية وجنوبي الجزيرة وله تآليف كثيرة أفادت المتمدن وانتفع بها طلاب العلم . افتتح كتابه هذا بالثناء

على عالمين فرنسويين مشهورين سانفستر ساسي وكاترمير اللذين جعلا العربية بما توفرا عليه من الدراسة والتدريس علما أوربياً وبواسطتهما انتقل تعلمها الى ألمانيا وأولع بنوها بتعلمها وخدمتها أحسن خدمة ثم انتشرت في سائر انحاء أوربا

وقد عني المؤلف منذ خمس وثلاثين سنة بدراسة اللغة المحكية حتى كان بعضهم في مصر والشام - على ما قال عن نفسه - يصفونه بأنه مجنون لكثرة عنايته بلغة يحتقر أهلها فصيحها فما الحال بعاميها وقال ان شأنه في ذلك بداءة بدء كان شأن الرسول (ص) لما أخذ يدعو قومه الى الدين فيقولون انه مجنون . وبعد الاعوام الطويلة التي قضاها في تتبع لهجات العرب من مظانها ودراسة الشعر قبل الاسلام والاطلاع على ما أبقوا في اليمن وسورية من الآثار التاريخية المزبورة على الصخور في القفار أيقن ان اللغة المحكية اليوم كان لها حظ من الانتشار قبل الاسلام وان العرب في ذلك العهد لم يكونوا كما أدعى بعض الباحثين جهلاء أميين أو انهم خلقوا من لاشيء كما خلقت منيرفا من رأس المشتري ويكفي أنهم كانوا على شيء من المعرفة ان رعاة تلول الصفا وغيرهم من جيرانهم خلفوا ألوفاً من الاحجار عليها خطوطهم وربما كتبت قبل الحميرية اليمانية

ومما استدل به على وجود علاقة بين اللغة الفصحى والعامية وان العامية كان يتكلم بها في بعض انحاء الجزيرة ان الاعراب والتنوين قد ظهرا كل الظهور في الخط المسند البابلي الذي عثر عليه حديثاً في شريعة حمورابي وان الاعراب والتنوين معروفان قبل تلك الكتابة ويقول بعض الباحثين في

اللغة الاشورية ان تعهد ذلك يرد الى سنة ٢٨٠٠ ق - م ويرده آخرون الى ٣٧٥٠ ق - م

ومن رأيه ان التنوين والاعراب لو حذفا من العربية لأصبح نحوها عبارة عن مئة صفحة مثل نحو لهجة عربية حديثة ولا تبقى كل تلك التراكيب قال : وبعد فلم يرفع من بناء العربية حجر واحد ولكن ربما أضاف اليه علماء النحو أحجاراً كثيرة على ان العلم قاصر عن الاحاطة بالقديم الذي كان قبل الارتقاء الاسلامي العظيم وبالحديث منه . وان هذه اللغة لتعيش أيضاً على رقيها وما فيها من قواعد إعرابها وفي المدارس وبين طبقات الشعراء ويكفي في إقناعك يا هذا فيما أقول ان تحضر اليك مسلماً عالماً وتسأله فيها ماهو ولا جرم معجزة للرسول « صلوات الله عليه » ذاك الجمال المكين الذي ما خامره ريب بانه يزين العلم الحديث بمشعل من النور يضيء ضياء يأخذ بالابصار منذ ألوف من السنين . فان اجتمعنا هنا لنعجب بهذا البناء الخالد فبفضل رسول الله ولولاه لما شغلت العربية فرعاً من مؤتمرنا هذا وما كان ملايين من العرب تكلموا ودرسوا لهجة لطيفة خرجت من برج بابل من بين سائر اللهجات

وبحسب ما وصل اليه المؤلف ان لفظ البدو النازلين في الجنوب من شبه جزيرة العرب أكثر انطباقاً مع قواعد النحو من غيرهم وقال انه لا يضاد القائلين أن سكان حارب وبجانهم الذاهبون بهذه المزية . وقد قيل للمؤلف ان قبائل فهم وقحطان في الحجاز يحسنون التكلم من بين عرب الشمال . وذكر ما قاله نولدك في مجمع علماء اللغات من الالمان في ستراسبورغ من « ان اللغة العربية هي النقطة المركزية للدروس السامية » وزاد بان

اللهجات العربية على اختلاف اذا الربا لو أخذت بمجموعها مع ذخائر بلاد بابل واشور التي تكاد لا تنضب كنز عظيم يعترفيه على المواد الكافية للوقوف على اللغة السامية أحسن وقوف. وختم الكتاب بانه يود أن يجاري العلماء ويكاثرهم في البحث فيما بقي عليهم أن يبحثوا فيه من لهجات العرب في الغرب الاقصى لولا انه وصل الى سن قال فيه امرؤ القيس

اراهنَّ لا يُحببن من قلَّ جاهه ولا من رأين الشيب فيه وقوَّسا

تدبير الصحة

التوقي من البرد

جاء زمن الكن والكانون وبرد الجو وتغيرت الأهوية فكثرت بذلك الادواء ولا سيما النزلات فارتأى أحد أطباء فرنسا ان خير ما يقي الصحة من التداعي في مثل هذا الفصل الامتناع عن شرب الماء المبرد أو المثلج أو المقطر وان يمتنع عن التوابل (السلطات) والبقول النيئة كالخس والخرشوف (الارضي شوكي) وان تنظف المساكن كل التنظيف ويرش أرضها بكلورور الجير (الكلس) على معدل خمسة في المئة تودع حيطان الغرف بحائر الجير مضافاً اليه كلورروره وان لا يفرط الانسان في استعمال الضروريات على أنواعها

إطالة الحياة

كتب أحدهم في احدى المجلات الباريزية الخطيرة مقالا في معنى اطالة الحياة قال فيه ان القول بأن الهرم يبدأ في سن الستين فينقطع المرء لهذا عن أعماله وملاذه استعداداً للموت هو حديث خرافة لا يقره من درس علم منافع الاعضاء. قال واذا ضعفت وظائف عضو منا أو غيرها من الوظائف أو أقعدت عن عملها فلا تمل يا هذا بالقوم على الايام بل لم تفتك بما أسرفت واستهترت. الهرم هو دور الحياة الذي لا يعود فيه المرء يستمتع الا بجهاز بال فيموت حتف انفه بيد ان هذا الاجل هو اطول مما يتوهمه الناس اذ يمكن ان يمتد الى مئة وخمسين سنة واحياناً الى مائتين والدليل على

ذلك انك اذا رجعت الى سجل الوفيات في باريز تلك العاصمة التي فيها من مقتنيات الحياة والصنعة ما يسوء ويسوء تجد الاعمار فيها قد تطول الى ثمانين او خمس وثمانين سنة وربما الى اكثر من ذلك احياناً

سير العلم

مسمعة

هذه المسمعة واسمها كوستيكون هي عبارة عن آلة تلفونية تسمع الصم اخترعها احد الاميركان وجربها في عدة محال للتمثيل والمعابد في نيويورك وهي مؤلفة من التلفون والميكروفون والميكانوفون واشبه بآلة تصوير وتسمع كثيرين في آن واحد

حب العلم

وهب احد الاميركان مليون فرنك لانشاء منبر للتاريخ والاوضاع الاميركية في كلية برلين الجامعة رجاء نشر العلم الاميركي حتى في اقصى بلاد الله بعلمها . ولا يبعد ان يتبع الاميركان بعد كليات لندن وباريز وبطرسبرج وروميه وآثينة ومدريد وسائر عواصم أوربا أمثال هذه المنح والعطايا . ولقد كان سسل رودس الغني الانكليزي الملقب بنابوليون افريقية أوصى بمال لكلية اكسفورد ليدرس به طلاب العلم من المستعمرات الانكليزية والاميركية في تلك المدرسة الجامعة ويرجعوا الى بلادهم وقد تشبعوا بالافكار الانكليزية فلم تخل وصيته من النقد عند فريق من العلماء بل قالوا ان الموصي لو أوصى بأن يبعث بأساتذة انكليز الى المستعمرات والولايات المتحدة لكان بلغ الغرض وأصاب المحز

غاز جديد

يعنى الآن أهل العلم في اميركا باكتشاف غاز جديد من خصائصه ان يمتص الرطوبة من جميع المواد العضوية ويحفظ الحاصلات الغذائية وأخشاب العمارة من الفساد بعض الحفظ . وقد جرب فثبت ان الثمار والبقول وجدت به سالمة من البكتريا بعد أربع سنين لم يطرأ عليها انحلال ولا تغيير كيماوي فجففت بالماء قليلا فعادت الى نضرتها ونوتها وطعمها . واذا زيد خمسون في المئة على أجرة الشحن تنقل الغلات في هذا الغاز من مملكة الى أخرى . ولا يسطو عليها سوس ولا فساد وينقل الجندي منه مؤنة أسبوع ويكتفي الفقير به للغذاء ويشفي من الامراض بادلاله كجراثيم العفن

المجلات الافرنجية والعربية

الموسيقى العربية

مابرحت « المجلة » الفرنسية تأتينا الآراء بشأن الموسيقى الشرقية وأحسن ما ورد علينا من ذلك رأي يقول فيه صاحبه ان العرب يجهلون الايقاع وينكرونه ويستغربونه وأقام صاحبه الحجة على اتلاف الالحان الشرقية اذ ليس في ضرب الصوت الشرقي أدنى مناسبة مع الصوت الغربي .

الشبان المتعلمون

في احدى الجرائد الالمانية بحث في ان الشبيبة المستنيرة يقف سيرعلمها بعد ان تنال الشهادات المتنوعة بدلا من ان تزيد مادتها العلمية بالتوفر على دراسة الكتب الجيدة والابحاث الخاصة الدائمة وقد أوصى الاهل والشبان أيضاً بطريقة في التعليم معقولة عملية وذلك بان تلاحظ الحياة البشرية ونشؤها

التبشير

الهلال — نشر مذكرات الدكتور فانديك في أعماله وأعمال المرسلين الاميركان في سورية وصف فيها بيروت وصفاً مجملا عند دخوله اليها سنة ١٨٤٠ وكانت قليلة السكان والمنازل وقال ان دروز رأس بيروت تنصروا تخلصاً من الجندية وتتجلى في هذه المذكرات روح البحث والتفاني في المصلحة

تاريخ المورو

المقتطف — قرظ كتاب تاريخ المورو أي مسلمي فيليبين الذي وضعه بالانكليزية حضرة الفاضل الدكتور نجيب صليبي معاون حاكم جزائر فيليبين الاميركية ومن نوابغ سورية بعلمه وتربيته . قال المؤلف ان تاريخ مسلمي فيليبين قبل ان يتحلوا الاسلام خرافي تناقلوه خلفاً عن سلف ولم يعن أحد بتدوينه ولكن لما جاء الاسلام الى تلك الجزائر جاء معه العلم والعمران فانتظمت الاحكام ودونت التواريخ ووضعت التراسيل وهي عندهم كشجرات الانساب عندنا . والتراسيل بلغة مخندناو لكنها مكتوبة بحروف عربية . ومعنى مخندناو البلاد المروية لان فيها نهراً يفيض عليها ويرويها فاطلق هذا الاسم على البلاد وعلى سكانها . وكان بدء دخول الاسلام اليها

في نحو سنة ١٤٢٥ الميلاد . قال والمورو الموصفون بالقسوة والشمم أرقى جداً من الوثنيين الذين يسكنون سائر البلاد مع انهم جميعهم من أصل واحد لكن الاسلام علاهم وهذبهم وأوصل بينهم وبين غيرهم من الامم . والكتاب كله ينبئ عن روح صاحبه الشريفة التي تهذبت وأخذت ترى الحقائق بالعين المجردة وقد كان العامل الاعظم في تهذيب المسلمين في تلك الجزر فابتاع لهم منذ مدة كثيراً من المصاحف وكتب العبادة وأخذ يدرسهم فيها حاثاً لهم على التمسك بالاسلام وأقنع حكومة الولايات المتحدة بذلك من الوجهة السياسية جزاه الله خير الجزاء.

نفاضة الجراب

تفقه في ساعة

من مضحكات الوهراني مقامة في قصة عجوز تزوجت باسكاف فجعلت تعلمها الفقه وذلت له كن فقيهاً فكان . قال عيسى بن حماد نقلت للراوي مثالك من أفاد ، وشفى بحديثه الفؤاد ، فكيف تمشي حاله ، وتنطلي على الفقهاء محاله ، فقال اعلم انه لما أجمت العجوز على تعليمه ، ورده الى المدرسة وتسليمه ، تخوف من ذلك الامر ، وبات ليلته على الجمر ، فلما أصبح قال لها : اعلمي يا هذه اني كنت في بلدي اسكافاً .. فكيف لي بالمدارس ، وأنا كالعلل الدارس ، ومن أين لي بالتخبيز (كذا) وأنا مثل حمار العزيز ، والله ما أفرق بين الحروف ، وقرن الخروف ، فقالت أنا أعلمك العلم كله ، الا أقله ، وأعلمك فصلا في التدريس ، تفاب به محمد بن ادريس ، فقال لها يا هذه والله ما أرجو من المدرسة نفعاً ، واني اخاف ان يقتلوني صفعاً ، فدعيني في ... فقالت أريد اخرجك من الدائر ، وارفعك على رؤوس المنابر ، فاحضر ذهنك ، وافتح لهذا الدرس اذنك ، واعلم ان الالف قائم كالمنزل ، وهو كتاب المنزل ، والباء كالصنارة ، او كرجل المنارة ، والهاء كالنقالة ، وفيها شيء كالعرقالة ، والطاء كالحقف ، او كطارة الدف ، وكل مدور ميم ، وكل ممزوج حيم ، والصاد تشبه نعالك ، والذال تشبه قذالك ، وان القاف والكاف ، يشبهان الاكاف ، فاحفظ هذا الكلام ، وقد اصبحت مفتي العراق والشام ، واحذر اعتزالي ، واعلم ان بهذا الفصل تقدمة الغزالي .

فاقبل التلميذ يكرر لفظه ، حتى اجاد حفظه ، وعندها خرج في القمة والغمة

(كذا) ويعزم على مدرسة جبل الأشمة ، فيخرجت تبخره من العين ، وتقرأ عليه المعوذتين ، وقالت له اذا جلست فتربع ، ولا تتمدد ، وانشر اكمامك ، واظهر للناس اعلامك ، فان التربع ابن تربية ، والتقيم ابن جدبية (؟) فقال لها : اوصيني برجاء الله . فقالت له اذا حضرت فانفخ حضنك ، وبعثك ، وانفش بين الفقهاء ذنبك ، وباكر المدرسة عند الصباح ، وسابقهم في الرواح ، وان غلبوك في العلم فلا يغلبوك عند الصباح ، فقال والله ، اخاف ان افتلي بالوالك (١) ولكن اوصيني فقالت حفظ اللفظ بأنامله بين شفتيك ، وزاحم الفقهاء بمنكبيك ، وازعق في وجه الشيخ ولا جناح عليك . قال فهاتي اذاً شيئاً من قماشك ، أرد به صفع الشماشك ، فقالت احسر على القوم ، فما هو الا بياض اليوم ، واعلم ان الفقه ليس هو الا النفاق والزعاق ، وتلويث وجه الخصم بالبزاق ، فقال لها ان صدقتي ، فانا اكون امام الوقت ، وقام في ذلك الأوان ، حتى دخل على الفقهاء في الايوان ، فهابته قلوب الجماعة ، وخافوا ان يكون من اهل البراعة ، فانصفوه في السلام ، وبسطوه في الكلام ، وآثروه بالمحاضرة ، حتى جاء وقت المناظرة ...

شكر المقتبس

نرفع الى من كاتبونا وشافهونا من رجال الأمة أجمل شكر وحمد لما تكرموا به من عبارات التنشيط على نشر المقتبس سواء كان بالخطاب أو بالكتاب كما نثني أطيب الثناء على الصحف العربية على اختلاف نزعاتها وموضوعاتها التي ذكرت صدور هذه المجلة ونوهت بها ونسأل الله ان يحقق آمالهم وآمالنا ويصلح أحوالهم وأحوالنا

وهنا نشير تتميماً للفائدة ما تفضل به صاحب المقتطف وصاحب المنار الغراوين من نقد المقتبس عملا بالتماسنا منهما وهاك ماقاله المقتطف في معنى النقد :

« وفي باب تدبير الصحة شرح أسلوب الانكليز في الاكثار من طعام الصباح وحث بعض الفرنسويين قومهم على اقتفاء آثار الانكليز في ذلك لكن علماء الصحة من الانكليز يخطئون قومهم ويقولون ان الاكثار من الطعام في الصباح ضرر محض ونجاح الانكليز أسباب أخرى ولا علاقة لطعام الصباح به ... وأما ما ذكره في باب مقالات المجلات الذي قال انه زبدة ما وقع عليه اختياره من أهم أبحاثها فيدل على ان مقام المجلات العربية ليس في عينيه على ما يرام . وهو أسمح من ذلك وأكرم »

هذا محل النقد من مقال المقتطف واليك محله من مقال المنار :

---

(١) الوالك والشماشك والشماشك كلها مما يلبس في الارجل من نحو الخفاف وغيرها

وقد انتقدنا عليه أموراً لا يسلم من مثلها البشر، بالمثل منها أنه كتب عن ابن حزم في ثلاثة أبواب وتكلم عن الوهراني في غير ما موضع . ترجم ابن حزم في الباب الاول ثم ذكر شيئاً من نصائحه في باب الصحف المنسية ثم ذكر الكتاب الذي اقتبس منه النصائح في باب المطبوعات وكان يحسن أن يذكر في باب واحد من هذا الجزء وكذلك يقال في تكرار ذكر الوهراني والكلام في العملة . ومنها ان ما ذكره من النصائح لم يعد من الصحف المنسية وقد طبع الكتاب قبل وجود المجلة . فان أراد بالصحف المنسية ما أهمل الناس العمل به فالباب واسع يدخل فيه كثير من المجلدات العظيمة في التفسير والحديث والرقائق وغير ذلك فالانتقاد على الباب نفسه أولى . ومنها أنه لم يكن يحسن ذكر منشآت الوهراني والتشويق اليها والتصريح بتعمد كتمان مكانها لأن هذا يغري أهل الولوع بأمثال هذه المسائل الى البحث عنها ومن بحث عن الموجود ظفر به غالباً . ومنها ان بعض المباحث لم توضع في الابواب التي هي أليق بها فقد أدخل في باب التربية والتعليم الكلام في العملة والصناع وأخرج منه بحث تعليم اللغات . وذكر شيئاً من مقاطيع الشعر في باب المقالات دون باب الصحف المنسية . ومنها أن المنقول في بعض المواضع لم يتميز بنسبته الى الكتب والعلماء تميزاً ظاهراً يعرف أوله وآخره بلا اشتباه كما يرى المدقق في ترجمة ابن حزم وما نقل منها عن الذخيرة لابن بسام . ومنها الاختصار المخل في بعض المباحث كبحث « الامية والكتاتيب » فالظاهر انه يريد الكلام على الامية في الاسلام وكيف انتقلت العرب بعده منها الى التعلم حتى انشاء الكتاتيب قديماً وحديثاً ولكنه جعل نحو ربع ما كتبه في معنى لفظ الأمي وفي تفسير ماورد في أهل الكتاب من قوله تعالى « ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أماني » (وقد ذكر في المقتبس لفظ يقرأون بدل يعلمون سهواً فليصحح) وكان المناسب أن يذكر تفسير قوله تعالى « هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة » فقد فسر الكتاب هنا بالكتابة وهما مصدران للكتب . ثم ذكر شأن الكتابة في الجاهلية وذكر أمماً أخرى بالايجاز ولم يذكر عن الاسلام بعد ذلك الا سطراً ونصف سطر وقال بعد ذلك « هذه زبدة ما يقال في معنى الامية في الاسلام » الخ والسبب في هذا الاختصار المخل رغبة الكاتب في ايداع الجزء مباحث كثيرة . وأمثال هذه الامور التي انتقدناها مما يسهل تلافيها لاسيما بعد التنبيه اليها ومنها ما سبق فيه اصطلاح مجلات أوربا وان لم يكن عندنا مألوفاً